أضواء على الأدب الإسلامي

تأليف

الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

حقوق الطبع محفوظة

من مطبوعات المجمع الاسلامى العلمى

لكناؤ.الهند(رقم ٣٦٠)

الطبعة الثانية

ذيقعده/ ١٤٣٨ھ-اگست ٢٠١٧ء

اسم الكتاب	:	أضواء على الادب الاسلامى
اسم المصنف	:	محمدالرابع الحسنى الندوى
الصفحات	:	١٤٤
العدد	:	١١٠٠
المطبع	:	ايف.آر بريس ، لكهناؤ
سعر النسخة	:	١٠٠/ روبية
الناشر	:	المجمع الاسلامى العلمى الهند
العنوان	:	ص ب ١١٩، ندوة العلماء، لكناؤ

الهاتف : 0522-2741539

اى ميل :airpnadwa@gmail.com

تقديم الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي كفى، و سلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فهذه مجموعة لكلمات و مقالات كتبت غالبيتها مفتتحاً لأعداد الصحيفة العربية الناطقة لجمعيتنا الأدبية الإسلامية رابطة الأدب الإسلامي العالمية، التي صدرت عدة سنوات من مكتبها الرئيسي في ندوة العلماء لكناؤ، و كتبت بعضها كبحوث لندوات علمية أدبية عقدت في الهند و غيرها.

و بلغت هذه الكتابات في مجموعها إلى أن يتكون منها كتاب، و لما كانت فكرة الأدب الإسلامي التي قامت جمعيتنا الأدبية بعرضها و العمل بما يتيسر لنا العمل لها تفتقر إلى أن يتسع الاطلاع عليها لدى المهتمين بالأدب الإسلامي و الراغبين فيه على السواء، حتى تتضح لهم

هذه الفكرة القديمة و الجديدة ، فإنها قديمة مبدأ و أصلاً ، و جديدة في عرضها و إيضاحها ، و لقد كان الرئيس العام الجليل لرابطة الأدب الإسلامي العالمية الراحل العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله رحمة واسعة قد قام بعرضها عندما قوي الغزو الفكري و الأدبي من الغرب في معاهد الشرق الإسلامي ، ثم بناءاً على حاجة عرضها و نصرتها عملياً قام سماحة المرحوم مع مساعديه بإنشاء جمعية عامة لنصرة هذه الفكرة و نشرها على المستوى العالمي قامت بعملها باسم رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ ما يقرب من ثمانية عشر عاماً ، و قد امتدت ساحة عملها إلى أنحاء العالم الإسلامي من إندونيسيا في الشرق إلى المغرب العربي في الغرب .

و أنا كعضو في أسرة هذه الجمعية قمت بكتابة ما بدا لي ، و رأيت من حقه أن أعرضه على الراغبين في الأدب ، لا أدري هل نجحت في كتاباتي هذه في أداء المقصود منها أم عجزت في أدائه ، و لكن الذي أطمئن إليه هو أن هذه الكتابات لم تعد خفية ، بل إنها نشرت في الصحف ، فأرجو أنها تنال لدى أنصار الأدب الإسلامي رضا منهم بها ، و أردت أن لا تضيع مطوية في بطون الصحيفة التي تطوى بعد صدورها في زمن قصير ، فأنشرها مجموعة في كتاب ، أدعو الله تعالى أن يكتب في نشرها فائدة ، فإنه على كل شيء قدير ، و بالإجابة جدير .

و لقد ساعدني في تنسيق الموضوعات و مراجعتها الأخ الفاضل الأستاذ نذر الحفيظ الندوي أستاذ كلية اللغة العربية، كما ساعدني الأخ إقبال أحمد الندوي مدرس اللغة العربية في تصحيح التجارب و إعدادها للطبع، فلهما تقديري و شكري.

١٤٢٣/٠١/١٣هـ
٢٠٠٢/٠٣/٢٨م

محمد الرابع الحسني الندوي
ندوة العلماء، لكناؤ

نعمة البيان التي من الله تعالى بها على الإنسان

لقد من الله تعالى على الإنسان بمنحه له قدرة التعبير والإفصاح، وذلك بقولهَ تعالى:} الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان، والقوة البيانية عطية خاصة من الله تعالى للإنسان خصها الله تعالى بالذكر في موضع الإحسان بعد ذكر نعمته بمنح الإنسان الحياة في هذه الدنيا.

والقوة البيانية في الإنسان من أهم وسائل حياته البشرية يعرب بها الواحد للآخرين عن حاله وحاجته وتجاربه البشرية والشعورّية ويبادل المعرفة مع الآخر فيعطي ويأخذ ما يهمهما وما يحتاجان إليه في حياتهما من المعارف الطبيعية والحقائق العلمية والانطباعات الشعورية والمعاني المفيدة، وينقل بها الواحد إلى الآخر ما لديه من مشاعر ومعارف، فلو لم يكن الإفصاح بهذه التجارب والمعاني من واحد لآخر لبقي كل إنسان مطوياً على نفسه، محدوداً في

إطاره الغريزي وحده في مشاهداته القاصرة مثل المخلوقات العجماء في هذه الدنيا.

وقد لعبت قوة البيان في الإنسان دوراً رائعاً وعظيماً في حياته ونظم بمساعدتها الإنسان حياته وحسنها بالتهذيب وبلغ إلى درجات النجاح الكبيرة في أهدافه وغاياته المفيدة، إنه وصل إلى قمة الرقي والقوة والازدهار بالاطلاع والوقوف على أسرار الكون والحياة، وعلى حقائق نفسه أيضاً، هذا جانب لنافعية قوة الكلام والبيان، وفي جانب آخر يستخدم الإنسان هذه الوسيلة في إظهار عواطفه ومشاعره الجليلة والدقيقة ويتبادل مع غيره هذا الإظهار ويتأثر بها، ويؤثر على الآخر، وذلك بتأثير هذه المشاعر في استرعاء الانتباه الوجداني والشعوري القوي، في الإنسان، ويكون كل ذلك حيناً بالكلام الموزون المقفي وحينا آخر بالكلام المنثور الحامل لروعة التعبير وجمال الأداء وفي كلتا المرحلتين يلعب الكلام الفصيح دوراً مهماً في الحياة.

والله تعالى عند ما من على الإنسان بمنحه القدرة البيانية فقد أخبره بقيمة هذه الملكة المؤثرة المفيدة التي تفرد بها الإنسان على غيره من المخلوقات فقد استطاع بها الإنسان البلوغ إلى أعلى درجات الرقي وتسخير الأشياء لمصلحته ولأغراضه المتنوعة، وبها استطاع أن يملأ حياته بالجودة والجمال.

وكلمة البيان نقطة كان يعني بها ما يسميه الناس اليوم بكلمة الأدب في شطره المنثور مع كلمة الشعر للكلام المنظوم، ثم دخلت كلمة الأدب على الشطرين بسبب المضامين الثقافية والتهذيبية المفيدة التي يحملها البيان والشعر، ودأب الناس على ذلك وتوسعت المضامين الأدبية وتنوعت بتوسع الحياة وتنوعها، واختلف المضمون والموضوع في الأدب باختلاف أوضاع الحياة، واختلاف تصورات أصحابها، واختلط العرب بغيرهم وامتزجت ثقافتهم مع ثقافة غيرهم وتأثرت تصوراتهم بالمعاني الوافدة إليهم ولكنها انطبعت جميعاً بطبيعة إسلامية واحدة أو متقاربة.

ثم جاء العصر الحديث في وضع كانت آداب الشعوب المسلمة قد أصيبت بالتخلف والجمود وافتقرت إلى الحركة والانتعاش، وواجهت ثقافة الغرب المستعلى وآدابه النابضة بالحركة والحياة، فهابتها ولم يقف أمر على مهابتها و إعجابها لها، بل تجاوزت إلى حالة مركب النقص أمامها فكل ما عرضته الآداب الغربية في أشكال براقة نال التقدير والإعجاب بدون فحص وانتخاب.

هذا الموقف الذي اختارته الأمم الشرقية لم يكن موقفاً كريماً وشريفاً وبخاصة للأمم الإسلامية التي مرت من خلال حضارة راقية تتلمذ عليها أبناء الغرب، ومن خلال

ثقافات راقية مختلفة تفاعلت مع الثقافة العربية الإسلامية فتكونت منها ثقافة إسلامية ذات الفروع المتعددة.

والأدب في كل أمة لا تنبثق مضامينه ومعانيه من حياة أمته فحسب بل ويكون مرآة لها فلا بد فيه من التفريق بين الأصل منه والمستورد ولكن إذا اضطربت الموازين بسبب تواضع الأصيل منه أمام الدخيل لانخذل أمام الوافد الجديد فلا بد لأصحاب العزيمة والعقول الكبيرة أن يقيموا سداً يمنع الفارة، ويحيط التراث الأصيل من الذوبان ويربطوه بالمنابع الأصيلة الصافية، وهي للمسلمين كتاب ربهم وكلام نبيهم وإبداعات سلفهم وآراءهم القيمة ويستعينوا بها لإعادة الصرح الإسلامي، الأدب تتكافأ فيه نماذج مع نماذج الآخرين وتتميز فيه نماذج على نماذج الآخرين، ولقد وصف الله تعالى كلامه بالكلام المبين بقوله:} قرآن عربي مبين{ فلم يكتف بقوله قرآن عربي فحسب بل زاده بقوله:} مبين{ وبيان القرآن لا يقل من عصا سحرية ومن عصا موسى- عليه السلام- التي انبجست من ضربها اثنتا عشرة عيناً فقد أتى البيان القرآني بتأثير معجز على النفوس والقلوب فوقع ذلك مراراً وتكراراً في عهد دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لقريش فكم منهم جاءوا إليه للمعاداة والمخاصمة ولما سمعوا منه آيات من القرآن العربي المبين، لانت قلوبهم الجامحة وخضعت نفوسهم المستعصية، أما الذين لم يسمعوا

الكلام القرآني بآذان صاغية غير أنهم سمعوا الخير عنه وعن تأثيره وقوة بيانه تحيروا أيضاً وقالوا إنما هو سحر أو كهانة أو شعر، وقالوا بل هو كلام كالسحر يأتي بتغيير هائل يفرق بين الرجل وزوجه، ويأتي بتحويل في حياة الناس.

إن التأثير البياني وروعة الكلام الأدبي وجمال التعبير، إنما شكل قوة وتأثيراً تخضع أمامه النفوس ويتجاوب معه الوجدان ويلين أمامه الإنسان، ويخضع له عند ما يسمعه بإصغاء مع أنه من صنع الإنسان ونتيجة تفاعل وجدانه وخياله وموهبته اللغوية.

لقد كان الأدب العربي قبل الإسلام ممثلاً لحياة العرب الشعورية والوجدانية والنفسية عن طريق مضامينها الجميلة، ولما جاء الإسلام منح الحياة قيماً جديدة فيها طهارة وصفاء ورقة وكرامة وإنسانية، وقضى على التصورات التائهة والرغبات العاهرة وبذلك بنى أدباً مختلفاً عن الأدب القديم، وقام بتصحيح تصورات عديدة للإنسان العربي الجاهلي.

وأضاف تصورات جديدة لم تكن في حياته، لقد كانت فكرة النصرة والتعاون عند الرجل العربي الجاهلي "انصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً"، مفهومه من ظاهر ألفاظها لم تكن فيه إعانة للمظلوم أو منع الظالم من ظلمه فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وبعد مدة

من الزمن نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفس الفقرة "انصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً" فتعجب صحابته- رضى الله عنهم - وسألوه كيف تكون نصرة الظالم وهو معتدى فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التصور الإسلامي للنصرة وهو نصر المظلوم بحفظه من الظلم أما نصرة الظالم فهي بأخذ يده ومنعه من أن يقوم بالظلم، وتجلت التصورات الإسلامية الصافية حاملة لمعاني الإنسانية والسلوك الجميل في كلام أصحابها، وبذلك حمل الأدب في الإسلام طابعا يختلف في عديد من نواحي الحياة ومجالاتها النفسية والفكرية عن الطابع الذي لا يتلاءم مع تصورات الإسلام نحو الكون والحياة والإنسان.

والأدب في الإسلام إنساني التصور طبيعي الوضع، جميل الأداء، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ما توفى نجله الكريم إبراهيم "العين تدمع والقلب يبكي ولا نقول إلا ما يرضى الرب وإنا على فراقك يا إبراهيم محزونون، وقال في صلح لم تكن النفوس في باطنها راضية به: هدنة على دخن، وقال لحادي الإبل التي تركبها النساء" رفقا بالقوارير".

إن الحدود الإسلامية للأدب واسعة كسعة الحياة الإنسانية، فيه دقة كدقة الحياة البشرية وروعة كروعة الأزهار الجميلة والرياحين الفاتحة وليس فيه حجر وتضييق

جائر، بل إنما هو ملاءمة بين الفن وبين الإنسانية الصافية، إنه أدب يؤدي عمله بكرامة ويلعب دوراً تتطلبه آمال الإنسان اللائقة وهو يتلاءم مع حاجاته ومصالحه، إنه ينهل من المنهل القرآني المتدفق بالروعة والجمال والتأثير أولا ثم يقتبس من البيان النبوي الرائع الحافل بالتصور الإنساني البليغ، وبالتعبير المؤثر الجميل، ثم يقتبس بكل نموذج أدبي يتلاءم مع القيم الأدبية الصافية التي انبثقت من نماذج أصحاب الأساليب البليغة من المسلمين في مختلف أصناف الأدب ومجالاته المتنوعة.

نظرة إسلامية إلى الأدب

إن كلمة الأدب باعتبارها الكلمة العربية قديمة، استعملت في العهد الأول ولكن لم يكن استعمالها بالمعنى الذي يراد به في عهودنا المتأخرة، فقد كان المعنى الذي نريده من الأدب الآن: يؤدي بكلمتي:البيان نثراً، والشعر نظماً، فقد وردتا في هذا المعنى في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفد من بني تميم وكان رئيسه زبرقان بن بدر، ويرافقه عمرو بن الأهتم، وأثنى عمرو بن الأهتم على الزبرقان فوصفه بنعوت حسنة، ثم سخط منه فوصفه بأخلاق سيئة، فبدأت آثار الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع قوله، فقال: يا رسول الله! رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى ولقد

صدقت في الثانية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم" إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة"[1]

وسمع عمر بن عبد العزيز رحمه الله كلاماً فصيحاً من ولد فقال هذا السحر الحلال[2].

والواقع أن الذي يعرف لغة من اللغات ويتذوقها ويقدر على التعبير الجميل فيها فإنه يستخدم كلامه للتأثير أو لإظهار قدرته وصلاحيته.

وإذا كان المقصود من الكلام الإفهام والتفهيم والإقناع فيحتاج المعبر عن رأيه إلى العناية بالكلام فيختار كلاماً مناسباً لحال المخاطب، ومهما كان الموضوع، فإن مراعاة الحالة المقصودة أمر لا مناص منه في الكلام.

ويدلنا تاريخنا العلمي والديني أن العناية بالكلام وتأثيره كانت مرعية في كل عصر، وأكبر دليل على ذلك هي الروعة البيانية التي يشتمل عليها القرآن الكريم، فإذا قصرنا نظرنا على ما يشتمل عليه من جمال أدبي وقوة وتأثير لظهر لنا القرآن أحسن قصص وأروع بيان، فإن كل جملة وآية في القرآن تحمل ثروة أدبية وقوة بيانية لايمكن حصرها، كذلك الحديث النبوي الشريف يضم ثروة أدبية كبيرة تفوق ما تشتمل عليه الكتب الأدبية.

اقرؤا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

---

[1] البخاري : " باب إن من البيان لسحراً ".

[2] زهر الآداب

يأمر حادي الإبل بالترفق مع النساء" رفقاً بالقوارير"[1] لقد كان في وسعه ولم يكن من الخطأ أن يقول" رفقاً بالنساء" لكنه استعمل كلمة القوارير، وهي كلمة لا تؤدي مجرد معنى النساء بل تشخص طبيعة النساء ورقتهن، وذلك هو الاستعمال الأدبي.

وكذلك عند فتح مكة أنشد حسان بن ثابت الأنصاري قصيدة وساء ذلك عمر بن الخطاب- رضي الله عنه -لأنه اعتبر ذلك منافياً مع طبيعة الوضع الحربي الجدي، فأراد أن يمنعه، فقال رسول الله صلى الله عليه سولم ..دعوه فإنه أشد عليهم من النبل[2].

لم يكن كلام الصحابة رضي الله عنهم- أيضاً خالياً من هذا التعبير، فقد كانوا يراعون ذلك في تعبيرهم، وبه استحق كلامهم أن يعد من أصناف التعبير الأدبي، وفي الكتب أمثلة متوفرة من كلام سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عثمان وسيدنا علي، والصحابة الكرام الآخرين رضي الله عنهم جميعاً وكلام سادتنا، عمر بن عبد العزيز وحسن البصري والإمام ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي وعبد القادر الجيلاني، والإمام الغزالي، والإمام ولي الله الدهلوي وعلماء آخرين، فقد زخر كلامهم بنماذج من التعبير الجميل واتصف بالسمة الأدبية

---

[1] صحيح البخاري

[2] سيرة ابن هشام

والروعة البيانية، والتأثير الوجداني الذي يعد من خصائص الأدب.

إن أفضل طريق لإيضاح علم، أو تجارب، أو معلومات وشعور وعاطفة هو التعبير برعاية القوة والجمال للكلمات والجمل، وتخير كلمات بقدر اقتضاء المعاني لها، ونظم الكلام بها، بالإيجاز في موطن الإيجاز، والإطناب في موطن الإطناب، والسهولة والجزالة في موضع الجزالة.

يقتضى المعنى العلمي السهولة والسلالة في الكلام ويقتضى المعنى الأدبي حسن التعبير وجمال العبارة، وقد راعي ذلك أسلافنا بدقة وعناية.

أما الموضوعات الأدبية الخالصة فلا شك في أن يعتنى فيها بالجمال الأدبي أصلا ولكن السلف استخدموا في الموضوعات العلمية والتعليمية أيضاً نصاعة التعبير.

هذه الكتب تدل على اهتمام هؤلاء المؤلفين بالجانب البياني في العبارة، وامثلة هذه الكتاب في العلوم الشرعية والدينية، زاد المعاذ لابن القيم، وحجة الله البالغة للشيخ ولي الله الدهلوي، وإحياء العلوم للغزالي، فهي لا تخلو من الجانب الأدبي كذلك وبذلك الاعتناء تحمل هذه الكتب تأثيراً و قوةً زائدة .

وبهذه الأمثلة وهي غيض من فيض- يتضح أن القوة الأدبية أداة كبيرة لنقل الفكر والرأي، مدعومة بالتأثير في الذهن والوجدان، استحسن الرسول صلى الله

عليه وسلم وصحابته الكرام وأتباعهم هذه الأداة بل رعوها كل الرعاية، وبذلك يجتمع حسن الأدب في السيرة مع حسن الأدب في الكلام.

السمة الإسلامية والأدب

نجاح الأديب إنما يقول على تعبيره الجميل عن انطباع أو تأمل أو ظاهرة من ظواهر الحياة، أما معاني كلامه فلها أنواع كثيرة يختارها الأديب حسب حاجاته ومناسبات حياته، والحياة شاملة متنوعة الأحوال تكثر فيها المعاني وتتنوع، فمنها ما تتصل بجوانب الحياة المادية، ومنها ما تتصل بجوانب الحياة النفسية والروحية.

فمن الظلم أن يزعم رجل أن معاني الأخلاق والدين إذا دخلت في كلام زالت عنه السمة الأدبية، مع أن الأخلاق والدين وسيلة لتحسين الحياة الإنسانية وتهذيبها، تنال الحياة منهما الجمال والطهارة، أما الإسلام فشأنه أوسع وأشمل، إنه يجمع الدين مع الدنيا والدنيا مع الدين فهو يشتمل عليهما جميعاً.

فنحن عند ما نقول الأدب الإسلامي فمعنى به أدباً هو دين ودنيا في وقت واحد، وذلك لأنه يتسع اتساع الحياة، ويتنوع بتنوعها ولكن بطريقته وبمنهجه فإن ضوءه يشع في

مجالات الحياة الفردية بأنواعها المختلفة من عاطفية، وفكرية، ونفسية، وفي مجالات الحياة الاجتماعية من سلوك الإنسان مع أخيه، ومع جاره ومع زوجه، ومع إنسان غريب وأجنبي.

فنحن حينما نستخدم مصطلح الأدب الإسلامي لا نريد به تحديد الأدب بالزهد في مرافق الحياة، أو إلزام الأدب بالانكماش والانزواء في ركن خاص من أركان الحياة، بل إنما نريد به السمة الإسلامية النزيهة في الأدب.

والسمة في الأدب أمر لا يمكن التجرد والاستغناء عنها، فهي تختلف وتتنوع ولكنها توجد فلا يخلو منها نص أدبي مهما كان ولمن كان، وهي تنبع من شخصية صاحب الأدب فهي سمة شخصية الأديب وذاتيته، وهي تصبغ كلامه بصبغته الخاصة، فإذا كان الأديب ارستقراطياً فلا يخلو أدبه من صبغته الارستقراطية، وإذا كان ديموقراطيا فلا يخلو أدبه من صبغته الديموقراطية، وكذلك إذا كان الأديب رجلاً ملحداً فلا يخلو أدبه من صبغته الإلحادية، فكيف يخلو أدب المسلم من صبغته الإسلامية؟ وإذا كنا لا ننكر الصبغة الأدبية فلما ذا ننكر الصفة الأدبية إذا وجدنا في كلام رجل مسلم ملتزم بإسلامه.

وإن سمة شخصية الأديب في كلامه صفة تمنح كلامه الروعة والجمال فضلاً عن أن تجرده من الصفة الأدبية، ولكن لا بد أن يكون ذلك بتناسق واعتدال، والأديب إذا كان أديباً فهو يعرف كيف يحسن ذلك.

ولدينا تاريخ طويل للمناذج الأدبية الرائعة للإسلام منذ أن بسط الإسلام أشعته في هذه الأرض، وفي مقدمتها النماذج الرائعة من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم من أدعية، وأحاديث، وخطب، ومن كلام صحابته الأولين وفيها نماذج سيدنا على بن أبي طالب بصورة خاصة، وهي خطبه ورسائله وكلماته مما صحت روايتها، ثم تلتهم طائفة من أصحاب الكلام البليغ الرائع، في كل المجالات المختلفة من الحياة، وفيها قصص وفيها وصف وفيها إثارة، وفيها تعبير للملامح النفسية وتصوير للمشاعر الإنسانية، وعرض للتصورات الأدبية.

ولكن المحترفين بالأدب قصروا عنايتهم بالأدباء المحترفين، ولم يسلطوا الأضواء إلا على أدبهم وحدهم، وأغفلوا عن النماذج الأدبية الرائعة التي جاءت خلال كلام غير المتسمين بالأدباء والشعراء.

والذين لاقوا في هذا المجال ظلماً أكبر، هم الملتزمون بالسمة الإسلامية، والمتمسكون بمنهج من مناهج الإسلام.

مسيرة الأدب الإسلامي

ليس الأدب محصوراً في فساد، أو صلاح أو خاصاً بشر أو خير، إنما هو آلة في يد من يستخدمه وهو قوة عظيمة تتهافت أمامها القوى، وكلام يؤثر في النفوس والعقول، وقد سلك القرآن الكريم .. مسلك استخدام القوة الأدبية، وهو كتاب الله المجيد، واختار أساليب البيان الأدبي والتزم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصاحة اللسان ونصاعة البيان حتى اعترف ببلاغته وعدوه أفصح العرب وأبلغهم.

ولكن ما فتئ أن أصبح الفن الأدبي أسيراً في أيدي النفعيين والمستغلين يسخرونه لأهوائهم وشهواتهم ويرفضون ما يأتي من أهل الصلاح والاستقامة وينفون عنه صفة الأدب حتى ظن بعض الناس أن الأدب لا صلة له بالدين والاستقامة، فكانت الحاجة ماسة إلى أن تقوم حركة لتحرير الأدب من هذا الأسر وإبراز صلته بالحياة مع الموافقة مع السيرة الإسلامية في ذلك ومهتدية بهدى

القرآن وبيان الرسول عليه الصلاة والسلام بحيث يكون الأدب جامعاً بين المتعة والفضيلة وبين الجمال والخير وبين التأثير والتزام الحق.

ولقد شعر بهذه الحاجة عدد من أصحاب البيان الأدبي من الأوفياء للإسلام فسلكوا استخدام الأدب للأغراض الطيبة بإجادته وإحسانه وتحركت أقلام وعملت أفكار فبدأت تبرز من ذلك ملامح اتجاه إسلامي للأدب من نماذج أدبية إسلامية تجمع بين الخيرين تدل على ذلك أمثلة من تراثنا الإسلامي الأدبي القديم ونماذج من عصرنا الحديث نحو أمثلة من هذه النماذج في كلام شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال في شبه القارة الهندية وفي كلام الأستاذ محمد عاكف في شبه الجزيرة التركية ونماذج في شعر الشاعر العربي الكبير محمد شوقي ونجد نماذج رائعة في النثر أيضاً كتبته أقلام أدباء العصور السابقة وفي هذا العصر من الأدباء الإسلاميين في الشرق الإسلامي والغرب العربي.

وتوسع الأمر حتى تحول إلى فكرة وتصور معين يتسم بصفات إسلامية وخصائص أدبية واضحة يمكن بها وضع منهج إسلامي للأدب.

ولقد اعتنى سماحة الأستاذ الشيخ أبوالحسن علي الحسني الندوي الندوي بهذا الجانب النزيه من الأدب واستعراض نماذج منه وساهم بكتاباته وبتأليفه فيه ووضع كتابه مختارات من أدب العرب كنموذج جميل في هذا المجال

فقد ألفه على أساس المنهج الإسلامي للأدب وشرح فكرته في مقدمة الكتاب أعدها أولاً كبحث قدمه إلى مجمع اللغة العربية بدمشق عندما اختير عضواً مراسلاً له، وواصل فضيلته الكتابة والتأليف معتمداً على فكرته الإسلامية للأدب، وزاد الأمر قوة ووضوحاً وقد وجد تجاوباً من معاصريه الأدباء من أنصار هذا الاتجاه، وبعضهم أشاد هذا الخط الأدبي وأثنى عليه مثل المرحوم الدكتور عبدالرحمان رأفت الباشا رئيس قسم النقد والبلاغة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقاً، فقد سار المرحوم على نفس الخط وقام بإبراز نماذج للأدب الإسلامي من التراث الأدبي الرائع لصدر الإسلام ووضع كتباً تحتوي على المعاني الإسلامية الخيرة بأسلوب أدبي ممتع للناشئة والأطفال ودعا تلاميذه في الجامعة إلى إبراز نماذج أدبية إسلامية من الماضي الإسلامي وقد ظهرت بذلك سلسلة من الكتب على هذا المنوال.

وخطت فكرة الأدب الإسلامي خطوة جديدة عندما عقدت ندوة العلماء في لكناؤ عام ١٤٠١ هـ مؤتمراً عالمياً حول الأدب الإسلامي حضره رجالات الأدب الملتزمون من أطراف العالم، وتكونت في هذا المؤتمر أمانة دائمة لتحقيق الأهداف التي وافق عليها الحاضرون في المؤتمر وانبثقت منها لجنة تأسيسية لجمعية عالمية للأدب الإسلامي وعقدت جلستها الأولى في مكة المكرمة عام ١٤٠٤هـ تحت رئاسة

فضيلة الشيخ أبي الحسن على الحسني الندوي وحضور أساتذة من الجامعات العربية الإسلامية ووضعت فيها خطة العمل لإنشاء رابطة للأدب الإسلامي ووضعت دستوراً لها وقدمتها في مؤتمر عام للأدباء الإسلاميين الذي عقد في ندوة العلماء أيضاً عام ١٤٠٦هـ وبذلك برزت رابطة الأدب الإسلامي إلى وجود واختار المؤتمر سماحة الأستاذ الندوي رئيساً لهذه الرابطة وقرر أن يكون مكتبها الرئيسي في ندوة العلماء لكناؤ حالياً.

وتم تشكيل مجلس أعلى لهذه الرابطة باسم مجلس الأمناء للإشراف على شؤونها من خمسة عشر عضواً من أعضاءها المنتسبين ممثلين لأنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، وقرر رئيس الرابطة بناءاً على مادة من الدستور بتعيين سعادة الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا رئيس الأدب والبلاغة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، نائباً لرئيس الرابطة وخصه بمسئولية الإشراف على شؤون الرابطة في أقطار غرب الخليج العربي(البلدان العربية وما يليها في غربها وشمالها) ورئاسة المكتب الفرعي الخاص لهذه الأقطار، وقرر بتعيين عضو تأسيسي منتخب وهو كاتب هذه السطور مساعداً ونائباً له في مركز الرابطة، وكلفه بالإشراف على مكتب الرابطة لبقية المناطق الواقعة في شرق الخليج العربي(وهي شبه القارة الهندية وما جاورها من الأقطار).

وتوفي الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا إلى رحمة الله في بدء صيف العام الماضي ١٤٠٧هـ فاختير في مكانه سعادة الدكتور عبد القدوس أبو صالح أستاذ الأدب العربي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لرئاسة مكتب الرابطة للبلدان العربية والغربية.

وقام مكتب رابطة الأدب الإسلامي في جناحه الرئيسي الشرقي والغربي العربي بتنسيق العمل ودعم الجهود من إعداد البحوث ونشرها، وقام بعقد ندوات أدبية وعلمية عديدة في موضوعات أدبية إسلامية هامة، وللبحث في قضايا أدبية مقارنة بعضها على الصعيد العالمي وبعضها كانت على الصعيد الإقليمي، ولقد كان الحضور فيها حافلاً وكانت ندوات ناجحة ساعدت في تحديد مفاهيم أدبية من وجهة النظر الإسلامي وأصدر مكتب الرابطة كتباً عديدة حول الأدب الإسلامي بلغت نحو ثمانية كتب كما بدأ يصدر نشرة شهرية عن الأدب الإسلامي تحمل أخباراً ومقالات وكلمات في موضوعات تتصل بالأدب الإسلامي.

ثم توقف صدور هذه النشرة وبدأت الرابطة تصدر مكانها مجلتين فصليتين، مجلة باللغة العربية من الرياض باسم مجلة "الأدب الإسلامي" وأخرى باللغة الأردية من لكناؤ باسم" كاروان أدب".

ولقد أنضم إلى رابطة الأدب الإسلامي كأعضاء منتسبين لها عدد محترم من أدباء العالم الإسلامي الأوفياء للإسلام بعد موافقة مجلس أمناء الرابطة على ترشيحات أسمائهم للعضوية واختار مجلس الأمناء عددا من رجالات العالم الإسلامي ممن لهم مكانة خاصة أو دور هام في دعم فكرة الأدب الإسلامي كأعضاء شرف للرابطة وهم أمثال فضيلة الشيخ على الطنطاوي كبير أدباء العربية اليوم وفضيلة الشيخ عبد الله كنون رئيس رابطة علماء المغرب ومعالي الدكتور عبدُ الله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العام الإسلامي، ومعالي الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض، وسماحة الشيخ عبد الله إبراهيم الأنصاري، رئيس إحياء التراث الإسلامي في قطر، والشيخ أحمد محمد جمال كبير علماء الحجاز، والدكتور محمد عبده يماني رئيس جمعية اقرأ في السعودية ووزير إعلامها سابقاً، والدكتور إسحاق فرحان وزير الأوقاف للمملكة الأردنية الهاشمية سابقاً وغيرهم.

أما الأعضاء المنتسبون فقد بلغ عددهم إلى الآن نحو مأتي عضو وهم أمثال الشاعر العربي الكبير الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري المغرب، والكاتب الأديب الإسلامي الشيخ محمد المجذوب المدينة المنورة، والباحث الإسلامي الأستاذ أنور الجندي مصر، والمفكر الداعية والكاتب

الإسلامي الشيخ يوسف القرضاوي، والأديب الإسلامي الدكتور محي الدين عطية، الكويت، والباحث الدكتور عبدالسلام الهراس، رئيس قسم الأدب العربي بجامعة قطر، وطائفة من الأدباء الإسلاميين من شبه القارة الهندية بما فيه باكستان وبنغلاديش.

ولا تزال تصل ترشيحات جديدة إلى المكتب وهو سيقدمها إلى مجلس الأمناء وتقرير رأيه فيها، ويرى مجلس أمناء الرابطة توسيع نطاق العمل لدعم الأدب الإسلامي في كل مكان، وإنشاء أصرة الأخوة الأدبية الإسلامية بين المعنيين بالأدب الإسلامي ويرحب ترشيحات للأدباء الملتزمين بالإسلامية ممن تتوفر فيهم الشروط التي قررها دستور الرابطة ويدفع العضو المنتسب رسوم عضوية سنوياً إلى المكتب وهي في بلدان شرقي الخليج ١٥٠ روبية هندية أو ما يعادلها في شبه القارة، و٢٠ دولاراً أمريكياً في خارج القارة، والعضو يكون له الحق في نيل التشجيع من الرابطة لجهوده وأعماله الأدبية وتعاون أدبي معه.

على كل فإن رابطة الأدب الإسلامي قد أنشئ ليكون منبراً عالمياً لدعم التصور الإسلامي في الأدب وبذل الجهود لإبراز الصور البيانية العظيمة من القرآن الكريم والحديث وتلاميذ مائدته الأدبية الشريفة، ويمكن لأنصار الأدب الإسلامي أن يقوموا بهذا الدعم ويمكنهم ذلك بالتعاون بمكتبَ الرابطة القريب منهم لبسط نشاط الأدب

الإسلامي وإبراز ملامحه وإثراء جهودهم الأدبية القويمة وأن يؤدوا ما يسعهم من الجهد كوكلاء أو مراسلين للمكتب في هذا المجال.

والمكتب في محاولة للاتصال بهم لتشجيع جهودهم الأدبية الإسلامية ودعمها وتقويتها، والمكتب يسعى لفتح فروع إقليمية له في مختلف المناطق والأطراف التي نجد فيها أنصاره وأصدقاءه.

هذا أدب إسلامي وذاك أدب جاهلي

{ لكم دينكم ولي دين}

ليس مبدأ الأدب الإسلامي هو قص الجناح، بل إنه ترشيد للقصد، وليست ربوع من الحياة الإنسانية محظورة عليه، ولكن القضية هي قضية التحري للخير وتجنب مواضع الشر،فالأمر هو أمر النظرة والفكرة ، فهما إذا كانتا صالحتين فكل المناهج والمجالات الأدبية مفتوحة على الأدب الإسلامي، فهو أدب الرسالة والخطابة، وأدب القصة والرواية، وأدب الشعر والنظم، وهو نقد وتاريخ، ومقالة، وهو شعر وجداني وقصصي، هو كل شيئ من هذا وذاك ولكنه ملتزم في كل ذلك بفكرته الإسلامية الرشيدة، وبمنهج إنساني جميل، وضع خطوته ومهد سبله القرآن الكريم، ثم أدب الرسول صلى الله عليه وسلم وأدب أتباعه الملتزمين.

ومصطلح الأدب الإسلامي لم يكن مستعملاً في القديم، وذلك لأن الحاجة لم تكن تقتضى في حالة سيادة

الفكرة الإسلامية للحياة أن يقسم الأدب إلى إسلامي وغير إسلامي، فكل ما كان تحت سلطان هذه الفكرة من الأدب كان يعد إسلامياً، وكل ما كان خارجاً من هذا السلطان كان يعد منحرفاً وجاهلياً، وفي حالة سيادة الفكرة الإسلامية كان إذا نقص من أدب التزامه واشتط عن خطه الصحيح كان يوصف تائها منحرفاً، وإذا حافظ على التزامه فكان يعد صالحاً سليماً، لأن أصحاب الأدب- وأكثرهم مسلمون- كانوا في ثقافة الإسلام وفي بيئاته، فلم يكونوا يرجعون في تصوراتهم وأفكارهم إلى نظريات أدبية وافدة من البيئات الجاهلية المضادة للإسلام، فكلهم كانوا ينسبون أنفسهم إلى الإسلام، أما التفاوت فيهم فكان في مقدار الالتزام بمثالية الإسلام، وكانوا يتمايزون فيما بينهم على هذا الأساس، لا على أساس نظريات أدبية متعارضة عن الإسلام، ولا على ثقافته وغير ثقافته، فكان أدبهم الملتزم يعرف بالصالح، ويعرف غير الملتزم منه بالمنحرف، وذلك بمقدار التزامه أو تحرره، وكان لا يخرج ولا يتمرد في كلتا الحالتين على الإسلام، فكان إسلامياً بصورة عامة، لا يقرر الفرق بين نماذجه إلا بمدى التزامها.

ولكن أتى على المسلمين زمان أصبحوا في تأثير الاتجاهات الغربية في الأدب والفكر والثقافة، واختلط عليهم الأمر لا يعرفون بناءاً عليه ما هو أصيل وما هو دخيل، وطغت مفاهيم الأدب والنقد الغربية الجاهلية على

مفاهيم الأدب والنقد الشرقية والإسلامية، بحيث طمست معالمها، وذلك بإخضاع الآداب لنظريات سائبة وأفكار نابعة من البيئات الضالة بدون رعاية لما فيه الخير وما فيه الشر، فكان أمرا خطيرا ومفسدا للموازين الإنسانية الفاضلة، ومخالفا لما جاء به الإسلام من تغيير شامل من أوجه الفساد والشر إلى اتجاهات الصلاح والخير، وكان عودة إلى القيم الجاهلية القديمة، وأن كان ذلك بعنوان الجديد المتقدم الراقي.

ومما لا شك فيه أن للآداب تأثيرا كبيرا في صبغ حياة الإنسان صبغة يريدها صاحبها، لأنها تنفذ إلى أعماق النفس وتخالط العواطف والنزعات، وتتفاعل معها وتؤثر عليها وبذلك تساهم في صياغة الميول الإنسانية والطبائع البشرية، فإذا تركناها تخدم أية أفكار ومذاهب مهما كان أثرها في تنحية البشرية عن دروبها الصالحة واتجاهاتها الرشيدة فإن ذلك يكون بلاهة مهلكة منا، وهدما لذلك الاتجاه الإسلامي السليم الذي ألقى الإسلام أتباعه عليه.

وإذا اكتفينا في مقاومتنا للاتجاهات المنحرفة في الأدب بالمصطلح القديم، الصالح والمنحرف فإن ذلك لن يفت في عضد الاتجاهات الغربية المنحرفة للأدب، فإنها ستدخل إلى مضمار الآداب الإسلامية من باب خلفي وبطريقة منافقة، بحيث لا يفطن لها ولا يعرف مكرها، فلا بد أن نتحدث بصراحة، ونقول هذا أدب إسلامي وذاك

الإسلام فلا يطغي فيه جانب على آخر بل ويعملان كل منها في مجالاته بالتسامح والتعاون مع جانب آخر،وبذلك تسير قافلة الحياة في الإسلام بحيوية وطلاقة وبالتزام وسماحة.

وهكذا الأدب الملتزم بالإسلام فإنه ليس أدبا محصورا في الجانب التعبدي وحده، وليس حرا إلى حدود الإباحية واقتران السيئات، إنه حر وملتزم، يؤدي دوره في حدود الحياة الإنسانية تحت الوصاية الإسلامية التي ترعى لواقعية الحياة الإنسانية ولجوانب الطموح والنقص فيها فهي ترعاها وتعطي كلا منها حقها، فبذلك يستطيع أدب الإسلام أن يخدم الحياة الإنسانية كما لا يخدمها أدب آخر، ويؤدي حقها كما لا يؤدي أدب آخر، ويصورها بصورة أكرم وأشرف، وبجمال أروع وأصدق.

ذلك هو الأدب الإسلامي أدب تصل حدوده إلى أبعاد الحياة الإنسانية كلها ولكن بكرامة وسماحة وتحت وصاية الإسلام الإنسانية الكريمة السمحاء.

الأدب الإسلامي يمثل حياة المسلمين

الأدب يمثل الحياة ويصورها، ويعرض على القارئ والسامع صوراً تنعكس وتبدو من مجالات العيش المختلفة، ويعرض عرضاً جميلاً ومؤثراً لشتى جوانبها وأشكالها، فتبدو فيه ملامح السكون والحياة وأشكالها المتنوعة، فعند ما يفوتنا النظر إلى الحياة مباشرة ننظر إليها ونشاهدها في مرآة الأدب شريطة أن يجيد الأدب عمله وتصدق من صاحبه مقدرته وتحسن ملكته، وبذلك يصبح الأدب سبباً لتخليد أحداث الحياة وصورها، فهي تلمس وتشاهد ولو بعد وقوعها بزمن بعيد إذا بقيت العبارة المصورة لها، وبقى التعبير الفني الجميل عنها وبقيت معانيها وكلماتها مفهومة مثلما كانت مفهومة في أوانها.

فبالأدب يصل الإنسان إلى فهم ظواهر الحياة وتذوق كيفياتها، وقد يكون هذا الفهم والتذوق أحسن وأقوى من فهمها وتذوقها مباشرة بغير واسطة الأدب، ولو أن الظواهر الحقيقية هي أقرب منالاً ومن السهل أن تسبر

أغوارها بصورة مباشرة ولكن الأدب ينوب عن ذلك منابـاً كبـيراً وواسـعاً إذا اختفـت أو غـابت الظواهـر الحقيقيـة والوقائع العملية.

ويتسع الأدب باتساع الحياة وتتعدد جوانبه ونواحيه كما تتعدد جوانب الحياة ونواحيها، ويستطيع به القـارئ أو السامع أن يطل على حياة البعيدين في المكان أو السـالفين في الزمان مهما قدم تاريخهم أو بعدت أوطانهم.ومن أغـزر اللغات أدباً وأطولها مدة هي اللغـة العربيـة وآدابـها، فـإن امتدادها لا يقصر عن خمسة عشر قرناً بالتواصل والتـوالي، لم تنقطع هذه اللغـة ولا آدابـها في هـذا الامتـداد فـترة ولم تنسحب عن المجال الأدبي غير أنـه قـد اعتورهـا في عـهود مختلفة ضعـف وإسـتكانة لأسـباب متغـيرة وطارئـة، وكـان الإسلام أقوى وارد على اللغة العربية وعلى آدابها، ولقـد تلقاه الأدب وحمله بل وتزعم به، وأصبح لباساً مطابقـاً لـه واحتمل مسئولية عرضه وتقديمـه، فقـد كـان رسـول هـذا الدين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهو الداعي الأعظم للإسلام من أكـثر أهـل هـذه اللغـة وآدابـها قـوة وإجادة، لم يكن قائلاً للشعر لكنه كان مجيداً لفهمه ومتذوقاً لمحاسنه أما النثر الأدبي فقد كان صلى الله عليه وسلم أروع الناس جميعاً كلاماً فيه والفهم له.

ثم إن الدين الإسـلامي لم يكـن قـاصراً محـدوداً في العبادات وحدها حتى يقال عنه إنـه سـايره أدب كـان أدبـا

منحصراً في العبادات وحدها، بل إنما الإسلام هو الدين الفريد الذي اتسع كاتساع الإنسان وامتد كامتداد حياته، ولم يتعارض إلا مع ما يتعارض مع مصلحة الحياة الإنسانية ذاتها ومع ذوقها الجميل، وإنه إذا تعارض فيتعارض مع عمليات الهدم والإخلال بمصالح الإنسان وإنسانيته.

فلم يكن للعمل الأدبي أن يجد صعوبة في منادمة الإسلام ومسايرته ولم يكن له عائقاً عن أن يجد تحقيقاً لأهدافه في تصوير جوانب الحياة المتلائمة مع الإسلام.

أثر الدعوة الإسلامية على الأدب

لقد أثر ظهور الدين الإسلامي على الحياة العربية في عصرها الجاهلي تأثيراً عميقاً فقلب تصوراتها ونظراتها إلى الحياة ودخل العرب فيه قاطبة فكان تأثيره عليهم شاملاً، وهو ذلك الدين السماوي الأخير الذي جاء به -من الله تعالى رسوله العظيم محمد بن عبد الله القرشي العربي صلى الله عليه وسلم وصبغ الحياة العربية بصبغته الجديدة في جميع مناحيها ومجالاتها، فكان من تأثير ذلك أن خرجت الحياة العربية من حالة التفرد والانعزال القبلي إلى حالة الاجتماع والتضامن الإسلامي، وخضعت عصبية الدم والنسب لرابطة الأخوة الإسلامية الواسعة، كان مبدأهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وقول الرسول عليه السلام" كلكم من آدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى" فحصلت بذلك وحدة إسلامية شاملة، وزالت فوارق الدم

والنسب، وذكر الصحابي الجليل ربعي بن عامر مبدأ المسلمين في الحياة الجديدة بقوله" الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام" فتوسعت بذلك آفاقهم العقلية والوجدانية، اتصفت حياتهم بالنزاهة في السيرة المجد في العمل والسمو في العواطف والرغبات وتهذبت مشاعرهم وأرهفت أحاسيسهم، وتفاعل كل ذلك في تكوين طبيعة جديدة تختلف في الشعور والنظر عن طبيعة الحياة القديمة، وخضع لهذه الطبيعة الجديدة اقتباسهم واتباعهم لثقافتهم القديمة، وحياتهم السابقة واستفادتهم وتلقيهم من أدبهم القديم، وذلك بالإضافة إلى الزاد الأدبي والسلوكي العظيم الذي وصل إليهم من طريق القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد كان صلى الله عليه وسلم نموذجاً للحياة الإنسانية المثالية المتحلية بالصدق والصرامة والعطف والرحابة والسمو الخلقي، وقد قال" بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم وقد كان نشأ على بلاغة القول وفصاحة البيان، لأنه من قريش، ومن أكرم فرع منها، نزل عليه القرآن الذي اشتمل على الكلام البليغ المؤثر والبيان الزكي الرائع، تحولت به النفوس من الضلال ومساوئ الآداب إلى الصلاح ومكارم الأخلاق،

وبذلك برز للعرب خط جيد للأدب وهو استخدامه للأغراض الإنسانية النبيلة واستخدامه من الأوحال الدنسة والمتاهات الخليعة فأصبح بذلك ما يتجاوز الحدود النزيهة منه محظوراً مرفوضاً وما ينحصر فيها ويخدمها جائزاً مقبولاً، إنه نعى على رجال الشعر غوايتهم ومخالفة قولهم فعلهم في جانب، ورضي عن النثر حكمته وبيانه في جانب آخر، فانقطعت عنه بتأثير ذلك نواحيه التائهة، وزهد لوقت ما عدد من رجاله حتى في قول الشعر إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وكان لهدف صالح، فهذا حسان بن ثابت الأنصاري لم يقل الشعر بعد إسلامه إلا فيما يرضى الله ورسوله ويخدم الفكرة الإسلامية النبيلة، وهذا لبيد بن ربيعة صاحب إحدى المعلقات الشعرية زهد بعد إسلامه في قول الشعر فلم يقل إلا نادراً، وكذلك الآخرون من شعراء الصحابة - رضى الله عنهم لم يقولوا الشعر بعد إسلامهم إلا في أغراض سليمة نافعة، وبدأت تظهر للشعر معالمه الإسلامية، وبدأت تتكون طبيعته الإسلامية في كلام الملتزمين بالفكرة الإسلامية للشعر.

ويشير إلى الروح الإسلامية للأدب والشعر ما حدث لشاعر بعد إسلامه، وهو النابغة الجعدي لما قال فيما قاله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فلما سمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم تغير وجهه الكريم، وسأل إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال الشاعر إلى الجنة يا رسول الله، وبذلك طابت نفس رسول الله الله صلى الله عليه وسلم، لأنه عرف من شرح الشاعر لشعره أن المفهوم ليس كما يبدو من ظاهر النص، بأن يكون جرأة مع الذات الإلهية، بل إن مفهومه هو التقرب إليه وطلب مثوبته وجنته فبيت واحد من الشعر كان يدخل في حيز الإلحاد والكفر إذا كان مضمونه مغايراً للحق والإسلام ولكنه يصير بيتاً من الشعر الإسلامي، عندما يتفق مع النظرة الإسلامية الرشيدة إلى الحياة.

وظهر الاتجاه الأدبي الإسلامي الملتزم في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان مشتملاً على أنواع وأصناف أدبية مختلفة، لا على نوع واحد محدود، وقلده واتبعه فيه أصحابه رضى الله عنهم ثم الذين أتوا من بعدهم من أتباعهم، وبسطوا القول ونوعوه، كل بحسب مواهبه العقلية والخيالية ولكن ملتزمين فيه ومحتفظين بالسمة السليمة المقتبسة من المنهج القرآني للبيان الأدبي، ومن بيان الرسول عليه السلام - فوجد بذلك في مكان كل نوع من الأدب الجاهلي لون من الأدب الإسلامي، الخطب في موضع الخطب، والعهود في موضع العهود

والحكم والأمثال في موضع الحكم والأمثال، بدون أن تنطوي على خلاعة وفساد بالإضافة إلى ما تجدد لهم من أصناف أدبية أخرى مثل الرسائل والأحاديث، والأدعية والتوقيعات وذلك بتأثير تصورات جديدة للخير والشر والحياة والإنسان.

أبقى الإسلام من التراث الأدبي الجاهلي ما لم يكن فيه فساد وانحراف أو ما غلب نفعه على ضرره، إنه لم يعامله معاملة النفي والشطب جزافا بل إنما كانت نظرة الإسلام إليه كنظرته إلى الناس، فيهم خيار وشرار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم" الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا "(صحيح مسلم) وقد أثنى الرسول الله صلى الله عليه وسلم على الجواد الجاهلي الكريم حاتم الطائي عند كلامه مع ابنه فقد قال" إن أباك كان يحب مكارم الأخلاق" واستنشد شعر أمية بن أبي الصلت، وقال "آمن لسانه وكفر قلبه".

هكذا كانت نظرة الإسلام إلى الأدب ورجاله، فكل ما كان خيرا في الجاهلية عد خيرا في الإسلام.

المناجاة والابتهالات قيمتها الأدبية ومزاياها الفنية

إن الحمد والمناجاة والابتهالات من الموضوعات التي تعبر عن المشاعر والعواطف الدينية ويتوسل بها الإنسان إلى إظهار عبوديته وخضوعه واستكانته أمام ربه، رب العالمين، وتاريخها قديم قدم الإنسان في هذه الأرض وهذه المشاعر والعواطف يعبر بالحمد إذا كانت في صورة المديح والشعور بالجلال الإلهي والعظمة الربانية، وبالمناجاة إذا اتسمت بالحب والضراعة، وبالابتهال إذا تضمنت الوله والإخبات والإلحاح في السؤال والطلب، وتتفق هذه الجوانب في أنها مظاهر لصلة الإنسان بربه وعلاقته به وتتوافر نماذج الحمد والمناجاة والابتهالات في كلام رسل الله وأنبيائه وأوليائه والشعراء والأدباء وعامة الناس، متسمة بالعناصر الأدبية والنفسية من الوجدان والخيال والانكسار والانفعال، ولكن الأدباء - بصفة عامة - يفصلونها عن موادهم الأدبية لغلبة الطابع الديني عليها، ويقفون هذا

الموقف من كل كلام خلا من نية الأدب وقصده، ولم يحمل لافتة الفن أو لوحة اسم الأدب، وبذلك يخرج كثير من الدرر واللآلي الثمينة التي لا تحمل شارة الأدب والفن من أن تجد لنفسها اعترافا في المجال الأدبي، مع أنها حاملة للروعة الأدبية والفنية مع أن كل إنتاج تتوافر فيه شروط الفن واللغة والبيان وفصاحة الكلمات وبلاغة التركيب هو فن وأدب، سواء صحبته نية الأدب أو لم تصحبه، وإذا اتصف كلام بتعبير جميل عن الوجدان والانفعال فمن الظلم والعدوان أن لا يعد من روائع الأدب وبدائعه.

وتوجد في التراث المأثور نماذج وأمثلة كثيرة للحمد والمناجاة والابتهالات مصطبغة باللون الأدبي والوجدان والطابع الفني بحيث تثير الروح والعاطفة والوجدان وقل إنسان لا يجد القوة والروعة وروحه فيها.

ألهم الله تعالى دائما أنبياءه والمصطفين الأخيار من عباده كلمات الحمد والمناجاة والابتهالات، ولقد أثرت عنهم نماذجها، وذكرها القرآن الكريم في أساليب بليغة ومؤثرة تتجاوب معها النفوس، وتتحول بها صور العواطف والمشاعر إلى قوالب الكلمات والألفاظ، كأن الله تعالى علم عباده كيف يخاطبونه ويدعونه، ومن أمثلة ذلك آية الكرسي من سورة البقرة التي تتضمن نموذجا للحمد في أسلوب أخاذ ساحر وآيات من آخر سورة الحشر وآيات من آخر سورة آل عمران وأما سورة الفاتحة فإنها خير مثال

للشمول والجمع بين الصفات الإلهية والجمال والكمال والعبودية، والإنابة والتضرع والابتهال.

والأحاديث النبوية الشريفة أيضا حافلة بنماذج الحمد والمناجاة والابتهال في كلمات تطفح بلاغة وتأثيرا وأخذا بمجامع القلوب ونفوذا إلى المشاعر والوجدان، وهذا كله كلام منثور، استفاد منه الشعراء واسترشدوا منه وصاغوا أحاسيسهم ومشاعرهم القلبية والوجدانية في قالب الشعر، وتفننوا في الأساليب والتراكيب، حتى ظهرت نماذج رائعة وبديعة للحمد والمناجاة تغذي القلوب وتثير الأحاسيس والمشاعر وتهيجها.

ومن العجيبَ أن المؤرخين للأدب وناقديه لم يعيروا اهتماما لائقا بهذا الجانب، بل تغافلوا عنه وعاملوه بالإهمال والنسيان، مع أنه انموذج أدبي رائع مدعم بالوجدان والانفعال، يستحق كل تقدير واهتمام.

صنف من الشعر: عذب وجيب

المديح من أوسع أغراض الشعر وأغزرها مادة في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات والآداب، فقد مدح الشعراء ملوكا وأمراء وأصدقاء ومحبين، والأغنياء المحسنين إليهم، ومدحوا أصحاب القوة والنفوذ المهيبين، مدحوا هؤلاء وأولئك بالإخلاص حينا، وبالتملق حينا آخر، هكذا جرت العادة لدى الشعراء القدامى والجدد عبر العهود والأزمان.

ولكن سلك الشعراء في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مسلكا ملتزما، وانطوى شعرهم فيه على الإخلاص والحب والاحترام، وذلك يميز مدح الرسول صلى الله عليه وسلم على مدحهم لغيره، فقد خلا مدحهم له من التملق والنفاق والمبالغة الكاذبة، مع أن شعر المديح قلما يخلو منها، وإنما يظهر الاختلاف بين مدح الشعراء للرسول صلى الله عليه وسلم ومدحهم لغيره بأن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تحتل من قلوب مادحيه محلا لا

تحتله شخصية أخرى، وذلك لصفاء نفسه الكريمة وسجاياه الإنسانية الخالصة، ومكارم أخلاقه التي كان يؤمن بها ذووه ومعارضوه على السواء، ويدل على ذلك ثناء من لم يكونوا آمنوا به كذلك، ومثاله قصيدة الأعشى الذي مدحه ولم يكن دخل في أتباعه، فقد اتصفت قصيدته بالصدق والطبع، والسذاجة البليغة، أما الذين آمنوا به ودخلوا في نطاق الحب له فقد بلغ كلامهم مع السذاجة والصدق مبلغا تتسم فيه بسمة الحب والهيام مع التحفظ والالتزام.

لقد جمع مديح الرسول صلى الله عليه وسلم بين عناصر صالحة من غرض المديح وعناصر صالحة من غرض النسيب، مع بعده عن المبالغة والمجاملة المصطنعة في جانب، وعن الإسفاف والابتذال في جانب آخر، فضلا عن الخلاعة والإباحية.

ويمتاز شعر مديح الرسول صلى الله عليه وسلم بجمع الجزالة والرقة وبجمع الشعور الإنساني الطبعي والعاطفة الدينية المتوهجة، جمع الحب والهيام مع الإكبار والاحترام بتحفظ والتزام، وفيه وصف وعاطفة ورقة خيال.

وظهر الالتزام في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم بالرزانة والنظر الديني وذلك بتقيد الشعراء بعقيدة التوحيد عند إبدائهم لمعاني الحب والاحترام وبوضعهم لمقام النبوة في موضعه الإسلامي الصحيح، وفي كل ذلك

يختلف مدح الرسول صلى الله عليه وسلم عن مدح الشعراء غير المسلمين للشخصيات الدينية الكبرى لديهم.

وبناء على ذلك نستطيع أن نقول إن مديح الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبق غرضا عاما للمديح، ولكنه أصبح غرضا شعريا بعينه، منفصلا عن المديح العام وهو ينطوي على معاني النسيب أيضا، فهو إذن لا يدخل في غرض المديح العام، ولا في شعر الحب والغزل بل إنما يختط لنفسه طريقا بعينه له صوره ومعالمه الخاصة.

وتقدم مديح الرسول صلى الله عليه وسلم باختصاصاته كغرض مستقل بذاته وتوسع على مر الزمان، واختلاف المكان وأصبحت له أطوار ومناهج منها منهج قصائد البردة الذي يتبع المنهج العربي الشعري القديم الذي سلكه كعب بن زهير في قصيدته بانت سعاد، ومنها منهج محافظ معتدل نجد أمثلته في شعر سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وغيره من الشعراء المعاصرين له والذين اتبعوهم من بعدهم، ومنها منهج قصائد غلبت عليها سمة الغزل والتشبيب وهي ما نجدها في شعر الشريف الرضي مثلا، وفي شعر الشعراء الآخرين الذين سلكوا مسلكه، ونجد في هذا المنهج سمة لشيء من الرمزية الرقيقة، ولكن المنهج الذي عم وراج بين الشعراء المادحين للرسول صلى الله عليه وسلم هو المنهج العام

المعتدل المحافظ الذي قاد مسيرته سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه .

ولقد كان شعر مديح الرسول صلى الله عليه وسلم بناءا على خصائصه يستحق أن يبحث فيه الباحثون ويستكشفوا فيها مواضع خفية للروعة الأدبية والبلاغة الشعرية، ويشرحوا ما ظهر فيها من البراعة الفنية والاحتياط الديني والمحافظة على التوحيد، ويتعرفوا على جوانب التأثير والإفادة فيه .

ولما كان هذا الموضوع يدخل في الأدب الإسلامي فكان من مسئولية رابطة الأدب الإسلامي بل من أسباب شرفها وسعادتها أن تعقد ندوة علمية أدبية فيه، وهي تقوم بذلك بعمل مفيد، عمل تكون فيه راحة للقلب المؤمن، ومتعة للذوق الأدبي وفائدة في مجال البحث والتحقيق.

سمات النبوة وطبائع البشر في الكلام النبوي:

إننا نجد أمثلة كثيرة للتعبير الجميل والبيان المؤثر في كلام سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وهو الرسول الإنسان والنبي البشر رحمة للعالمين وأبلغ الناس جميعا، فكلامه نبراس يستضيئ به الأدب الإسلامي على مر العصور والأزمان، وكانت حياته حافلة بالمعاني والجوانب المختلفة، إنه كان ينظر إلى أولاده بنظرة الإنسان الوالد صاحب العاطفة الأبوية الطاهرة والشعور الإنساني النبيل، وكان ينظر إلى أصحابه بنظرة الأخ إلى أخيه وبنظرة الصديق إلى صديقه، ونظرة الزميل إلى زميله، وكان يعاملهم وفق ذلك كله، ويعبر عنه بفصاحة وبيان، بكلام يحمل صورا معبرة عن مشاعره الإنسانية، لقد اشتملت نفسه على الجانب النبوي المتصل بالإرشاد السماوي، ولكنها اشتملت في نفس الوقت على الجانب الإنساني

الطبيعي النابع من الحياة الإنسانية الكريمة، وجانب الشعور الأدبي الحي الحامل للتعبير الجميل.

نماذج للتعبيرات الودية:

ومثال حبه لولده، وحزنه على مرضه ووفاته ما رواه سيدنا أنس بن مالك في شأن ابنه إبراهيم رضي الله عنه، قال: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان، فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأنت يا رسول الله؟ فقال يا ابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى فقال صلى الله عليه وسلم إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.[1]

انظروا من قائل هذه الجملة، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي المختار، وعبده المصطفى المزكى، ألم يكن باع عاجل دنياه بآجل آخرته؟ ألم يكن آثر حب الله والتفاني في مرضاته على كل حب آخر؟ ألم يؤمن بقضاء الله وقدره الذي لا راد له إلا هو؟ ولكنه قال" وإنا بفراقك لمحزونون يا إبراهيم"، وذلك لأنه كان رسولا بشرا، ولم يكن رسولا ملكا، فإن الملائكة هم الذين لا يحملون العواطف، ولكن البشر يحملونها، ولقد جاء تعبيره مصورا للعاطفة الرحيمة المشبوبة، ببيان مؤثر سليس.

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحدث مع أزواجه حديث الزوج لزوجته، يونسهن ويستأنس بهن، ويدل على ذلك استماعه لحديث أم زرع من زوجته عائشة رضي الله عنها، ثم تعليقه عليه بقوله لها، أنا لك كأبي زرع لأم زرع، ولقد نوه برقة الطبيعة في المرأة وحساسيتها وعدم مرونتها في أمور طبيعتها، فقال لسائق مطيتها" رويدك رفقا بالقوارير"، وقال" إن المرأة خلقت من الضلع"[1]، وقد كان يذكر زوجته الأولى خديجة رضي الله عنها، وحينما تسائلت زوجته عائشة رضي الله عنها عن ذكرها كثيرا قال إنها فعلت كذا وكذا، وأولادي كلهم منها، وذكر يوما رغبتين بشريتين، إحداهما الطيب وثانيتهما النساء، فقال:" حبب إلي من دنياكم اثنان الطيب والنساء".[2]

أما ظهور شخصيته كصديق لصديقه وكأخ محب لأخيه، فيتجلى من قوله في سيدنا أبي بكر الصديق لما وجده حزينا على خبر أخبره به فيه أشار إلى قرب وفاته صلى الله عليه وسلم " إنى لا أعلم أحدا كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه" وقال" فإني لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صحبة إخاء وإيمان حتى يجمع الله بيني وبينه".[3]

---

[1] البخاري :كتاب الأنبياء

[2] النسائي: كتاب عشرة النساء

[3] البخاري: باب فضائل الصحابة.

وذكر لصهره وابن عمه سيدنا علي بن أبي طالب عند ما استخلفه في المدينة عند غزو تبوك" أتخلفني في الصبيان والنساء" وقال" ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي".

وقوله للصحابي الشاعر المدافع عنه بشعره سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه "لا فض فوك وفداك أبي وأمي"١ وقوله لعمه الحبيب الذي لم يكن آمن به ولكنه أحبه ودافع عنه، عند ما سمع منه يوما كلاما يطلب فيه ترك دعوته كان وقف عليها حياته وآمن بها إيمانا أصلب من الحديد والحجر، فرد عليه بقوة وصرامة ولكن بلطف ورقة، حيث قال:" يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته" ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى، بكى فأضف إلى كلامه ما لم تكن العبارة تستطيع أن تصوره تصويرا كاملا من عاطفة جريحة حزينة وهوالبكاء، وكل ذلك كان طبيعيا لأنه نبي بشر فنبوته تمنحه قوة وصرامة وبشريته تمنحه الرقة والانفعال العاطفي وبلاغته تمنحه هذا التعبير البليغ والمنهج المؤثر الجميل فكان من تأثير ذلك أن ناداه عمه أبو طالب فقال اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبدا.٢

---

١ مجمع الزوائد للهيثمي ٨/١٣٦.(٢) سيرة ابن هشام١/٢٦٦.

نظرة على الخطابة المعجزة:

المراعاة لنفسية السامع أو القارئ من أهم أسباب القوة والتأثير في الأدب، وهي تنال موافقة في القلوب، وتجذب النفوس إلى الكلام، ويدخل بها المعنى المقصود من الكلام في القلوب مع التأثير المطلوب، وتوجد هذه المراعاة في الكلام النبوي الشريف بعد كلام الله سبحانه وتعالى - بصورة ملموسة، ونجد قوة هذه الوسيلة ونجاحها في الوصول إلى الهدف المنشود من الغرض الأدبي، ومن أمثلة ذلك خطاب الرسول- عليه الصلاة والسلام- لجماعة الأنصار رضى الله عنهم - بعد انتصاره في غزوة الطائف، فقد أزال بهذه الطريقة شكوى كانت قد نشأت في قلوبهم، بحيث بلغه - صلى الله عليه وسلم - أن تقسيمه لفيء المسلمين في غير الأنصار قد ساء الأنصار وآذى نفوس بعضهم، فقد كان تركه للأنصار من هذا الفيء وهو قريب من مكة، ووضعه لأهل مكة سهاما ضخمة في هذا الفيء، تجربة جديدة للأنصار، فخطر ببال

بعضهم ان قلبه- صلى الله عليه وسلم مال عنهم إلى أهل بلده الأول، فشعر بعضهم في ذلك- وهم بشر ولهم عواطف وخواطر، جفاء لم يكونوا توقعوه من قبل.

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فجمع الأنصار وخاطبهم بهذا الخطاب المحرك للنفوس والمزيل لموجدة بدت فيها، إنه حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم تعرض للأمر بصورة رقيقة، وتناوله تناولاً جانباً، وتساءل بقوله: ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ولم ينهم، ولم ينتقدهم انتقاداً صريحاً، بل إنما ذكر فضل الله ومنته عليهم، بأنه غير حالهم، من سيء إلى حسن، ومن ضيق العيش إلى سعته، وكل ذلك عن طريق رسوله الذي بعثه إليهم فقال:" يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألف بين قلوبكم ؟" وكان ذلك واقعاً

لا يمكن التغاضي عنه ولا ينبغى لرجلٍ مع هذا الفضل والنعمة أن يجعل لمال قليل حساباً خاصاً، فإنه أحقر من أن يعدل به ذلك الفضل العظيم ونعمة الله الجليلة التي حصلت لهم.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، ولم يكن غافلاً عن النفسية البشرية في كل إنسان، فإن ظهر في قلوب الأنصار مثل هذا الخاطر فلم يكن غريباً، وليس

إنكاره مما يزيله من قلوبهم إزالة كاملة، ويقضي عليه قضاء كاملاً، فأراد أن يعترف به أيضاً، ولكن باستبعاد ظهوره من قلوب أهل العزيمة من المؤمنين، فلفت نظرهم إليه، بصورة اعتراف به، فقال :" ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المن والفضل، قال: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتكم: أتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلا فواسيناك ". وبذلك حرّك في نفوسهم خاطرهم المكبوت، وأبدى بذلك إخلاصه ومحبته لهم وموافقته النفسية لآلامهم وآمالهم، فرؤا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حسب لذلك حسابه الطبيعي، فتقاربت قلوبهم إلى قلبه وتضامنت نفوسهم مع نفسه، ورأوا فيه هذه السعة في نظره نحو شعورهم، وهذا التجاوب في شعوره لهم وتقديره لأحوالهم، ودخل بذلك حبه في أعماق قلوبهم، وحينئذ نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجانب المظلم من خاطرتهم، واجتثها اجتثاثاً لا تقوم لها بعد ذلك قائمة، فقال:" أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في أنفسكم؟ كأنه شكا بذلك أن خاطر السخط هذا لم يكن لائقاً بهم، أكان يجوز لهم بعد التوافق بينهم وبينه وبعد الحب المخلص العميق بينهم وبينه أن يجدوا على رسولهم المحبوب، وهو الذي قد أمروا بفداء نفوسهم له وإيثاره عليهم وعلى أهليهم وأولادهم؟ ولأى شيء وجدوا عليه؟ أ في لعاعة من

الدنيا" واللعاعة كلمة لها تأثير في هذا المكان، وهي لذة قليلة وفائدة طفيفة، ففي إحدى الكفتين هذه الفائدة القليلة، وفي كفة أخرى حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإيثارهم له على كل شيء، فقال: أوجدتم علي في لعاعة من الدنيا؟ تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم" لا أظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ إلى هذا الحد من كلامه إلا وقد اجتث ذلك الخاطر المظلم الذي كان نشأ في قلوب بعضهم، فقد حرك كلامه أوتار قلوبهم الإيمانية ووافق نفسيتها الهائجة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتف بذلك بل زاد الأمر قوة، وضرب على وتر قلوبهم الحساس، وعلى شعورهم الإيماني الفائض، فحلف لهم تاكيداً على صلتهم الإيمانية القوية به، وأهمية هذه الصلة لهم، فقال: ألا ترضون- يا معشر الأنصار- أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ثم لم يكتف بهذا بل زاد قلوبهم تأثراً وانفعالاً، فقال: ولو لا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووواديها وقال: الأنصار شعار والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار" فبهذا الكلام المؤثر الذي يذيب الجلمود ويفجر الماء من الحجر، بهذا الأسلوب الجميل والتعبير

القوي المعجز وبلاغته المؤثرة، اجتث جرثومة الشكوى التي كانت نشأت في نفوسهم لعدم تقديرهم للحقيقة الكامنة وراء عمل الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان خفيت عليهم حكمته، فبكى الأنصار، حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظاً. ١

١ المسلم كتاب الزكاة.

موافقة الكلام الأدبي للوضع النفسي

مصدر القوة والتأثير في الأدب:

إن مصدر القوة والتأثير في الأدب ليس في جمال اللفظ وحده، ولا في جمال المعنى وحده، ولا في مجرد الطرافة التي توجد في أحدهما، أو في كليهما، بل هو في أن يكون المضمون موافقاً للوضع النفسي له ولسامعه وقارئه، وذلك لأن رعاية الكلام لنفسية السامع والقارئ تحمل تأثيراً أقوى من أي تأثير آخر، وإنما يكمن نجاح الأديب في أدبه في مدى قدرته على هذه الرعاية، في غالب الأحوال، ونجد لهذه الرعاية نماذج وأمثلة كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى- وفي كلام رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو أبلغ العالمين.

فالأديب عند ما يتحدث عن نفسه ويتمكن من صياغة كلامه في قالب حالته النفسية فإنما يملك كلامه تأثيراً قوياً، وعندما يتحدث عن غيره أو في شأن من الشؤون التي لها صلة بالآخرين، ويختار معاني وأسلوباً يحرك أوتار نفوسهم، فإنه يفتح- إذن- أذهانهم المقفلة وقلوبهم

المغلقة، ويجذب نفوسهم إليه، بل وقد يسحرهم سحراً، ولذلك لما نزل القرآن الكريم ومست رعاية ببيانه المعجز قلوب السامعين العرب الغلاظ النفوس سحرهم سحراً، فسيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عند ما خرج للبطش بالرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ومر على بيت أخته، وضربها على إسلامها وأدماها، هو الذي لما طلب الآيات القرآنية ليراها، قرأها، فتغير حاله، وقال: أين الرسول صلى الله عليه وسلم، وأراد الدخول في الإسلام، ولما جاء عتبة بن ربيعة مبعوثاً من قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمله على ترك دعوته، تكلم معه، ولكنه لما فرغ من كلامه قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم أمامه آيات من سورة، فلم يرد رداً، بل رجع إلى قريش، وقال لها : إني أرى أن تتركوه على حاله

والرسول صلى الله عليه وسلم لما سمع أن الأنصار رضي الله عنهم قد وجدوا في نفوسهم شكوى من قسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الفيء في غيرهم وحرمانه منه إياهم، جمعهم وخاطبهم خطاباً مس قلوبهم مساً حتى بكوا، إلى أن أخضلو لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً وحظاً.

الرعاية للوضع النفسي للسامع والقارئ:

فالقضية هي قضية الرعاية للوضع النفسي للسامع والقارئ أوتصوير الأديب لوضعه النفسي، فإن الشعور

الداخلي الحقيقي هو الأساس الأدبي إذا اتصلت به أساليب الكلام الأدبي أفاض على الكلام قوة التأثير والروعة، وقد تكون الكلمات والألفاظ بسيطة عامة، وتكون المعاني كذلك غير نادرة، ولا طريفة، ولكن الكلام يوافق الوضع النفسي للسامع أوالقارئ فيعمل عمل السحر، ويؤثر على النفوس كما لا يؤثر كلام أدبي بليغ آخر.

ولقد كثر الكلام بين النقاد والأدباء عن أسباب القوة الأدبية، وتنوعت المذاهب الأدبية، وظهرت لها فلسفات، وهي مهما اختلفت وتنوعت لا يمكن أن نجد أساساً ناجحاً قوياً للأدب إلا ارتباطه بالحالة النفسية للأديب المعطي أو الإنسان المتلقي الآخذ للأدب.

خصائص مناجاة الرسول الأدبية:

ولقد كانت مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم لربه - سبحانه وتعالى - أقوى الأسلوب الأدبي، وفيها أحسن تصوير لنفسه الإنسانية والنبوية، ومن نماذج هذا اللون من أدبه صلى الله عليه وسلم دعاؤه في الطائف التي كان قد سار إليها في حالة متأرجحة بين اليأس والأمل، وقطع إليها مسافة شاقة بين الوديان القاحلة والجبال الجرداء، ثم لم يلق في الطائف إلا جفوة قاسية، وقسوة عارمة، ورماه السفهاء بالحجارة، فأدموا قدميه الشريفتين، وأخرجوه من البلد دون أن يستريح لحظة من عناء سفره

الطويل الشاق، ومن جفاء كبراء الطائف الطغاة، مع أنه شريف بن شريف، وابن مكة العزيز، وابن قريش القبيلة المؤقرة، في الجزيرة كلها والطائف أقرب مكان إليها، فكان من الطبيعي أن يؤلمه هذا الوضع إيلاماً بالغاً، فهنالك في مكان بعيد خال رفع يديه إلى ربه، وعبر عما اختلج في نفسه المحطمة من الخواطر المكلومة، وهو دعاء يدل بأسلوبه القوي وتعبيره الرصين واختيار المعاني التي تشف عن المشاعر الداخلية للنفس مع احتياط عبدي نبوي كريم، على موهبته الأدبية الرائعة صلى الله عليه وسلم:

يقول فيه" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس" إن كل جملة من هذه الجمل تصوير للوضع العملي الذي يمر منه، بدأ كلامه بالتصريح باستسلامه التام لربه، فقدم كلمة" إليك" ولم يشك المصيبة والشقاء بل شكا وضع نفسه في تلك المناسبة، أنه لم يقدر على الانتصار على الظروف المحيطة به، فقوته ضعيفة وحيلته قليلة، ومكانته هينة في نظر الناس، ثم استغاث ربه وتضرع إليه، لأنه كان يؤمن بأنه لا ملجأ ولا منجي من الله إلا إليه، ولا خير إلا في رضاه، وفي النجاة من سخطه، يقول: " رب المستضعفين إلى من تكلني" ولم يقل : يا رب الضعفاء، لأن وضعه في هذه المناسبة وضع المستضعف وليس الضعيف، ثم يقول:" إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري" ولكنه يتوقف هنا عن

الشكوى لئلا يكون شكوى عاتب، فإنه عبد لا يليق به إلا شكوى مستسلم ضارع فيضيف إليه شعوره للعبودية والاستسلام فيقول:(إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك) يقول: هذا لأنه يخاف من أن يكون مصابه هذه نتيجة عتاب من ربه على خطأ صدر منه من غير أن يفطن له هو، فيقول: لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله).١

هذا نموذج من إحدى مناجاته وأدعيته، وهو يدل على تصويره لخلجات نفسه الإنسانية، ووضعه النفسي الدقيق، بكل صدق وروعة وأمانة.

١ سيرة ابن هشام ج١/٤٢٠

الالتزام ونحن والغرب

لقد شغلت قضية الالتزام في الأدب نفوس نقاد الأدب واسترعت انتباههم وانقسم الناس فيه إلى موافقين ومعارضين ولكن الالتزام في العمل الأدبي حالة لا محيد عنها لأديب فإنه لا يتجرد منها نص أدبي مهما قل ظهورها فيه أو ضعف أثرها، والالتزام إذا لم يكن معتمداً ظاهراً ملموساً كان خفياً وبصورة تلقائية.

وذلك لأن الإنسان مهما كان محايداً في نظراته إلى الحياة وتصوراته وأحواله النفسية والشعورية لا يمكن أن يخلو من احتواءه لميول ومشاعر ذات صبغة معينة وهي تلقي أضواءها على نفسه وتصبغها بصبغتها الأعمال التي تصدر منه، ومن هذه الأعمال عمله الأدب أيضاً، فنصوصه الأدبية لا يمكن أن تتجرد من هذه الانطباعات المعينة بتاتاً.

فإنما يوجد الالتزام من النوع الظاهر الملموس أو النوع الخفي المستور في المذاهب الأدبية الغربية كلها فإنه يوجد في الواقعية الاشتراكية وفي المذهب الوجودي للأدب

بصورة متعملة أما المذهب الوجودي فقد اتخذ الالتزام عنصرا من عناصره الثلاثة،وهي الحرية والمسئولية والالتزام، ولكن التزام الوجوديين التزام حائر ومحصور في أبعاد حياتهم الفردية والذاتية فلا يتسع للمصالح الإنسانية الشاملة الفاضلة، فصعب أن تنال الإنسانية منه قوة ومددا أو يجني المجتمع الإنساني منه فضيلة وخيرا.

أما الالتزام في الأدب الإسلامي فهو رحب رحابة شاملة واسع سعة هذا الكون والحياة فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم زعيم الأدب الإسلامي الأول وقدوته المثالية مبادئ التضامن البشري والتألف الإنساني عند ما أمر بالإحسان إلى ذوى الحاجة وبصلة الرحم لذوى القربى وأداء حق الجار وإن كان مخالفا ومخاصما ولم يكتف بهذا بل وتجاوز بأمره بإسداء المعروف إلى عالم الحيوانات وذوات الأرواح فقد سئل عن السلوك مع الحيوان فقال:" لكم في كل كبد رطبة أجر" فالمسلم مأمور بإسداء الخير حتى إلى الحيوان الأعجم فقد ورد عن النبي صلى الله عليه أن امرأة فاسقة مؤمسة سقت كلبا كان يعاني من العطش فغفر الله لها وأدخلها الجنة وأن امرأة عذبت قطة فدخلت بذلك في النار.هذه التوجيهات والأوامر إنما تصوغ حياة المسلم ومنها يتكون التزامه سواءا كان أديبا أو غير أديب فالتزام الأديب المسلم يراعي لخير الإنسانية كلها، فهو رحب وفاضل ولكن الغرب ينظر إلى الإسلام من خلال منظار أسود علق

على عينيه فلا يرى ولا يريد أن يرى في كل ما يتصل بالإسلام جمالاً وخيراً فالالتزام إذا كان بالإسلام فهو لديهم جفاف وتقييد وحرمان للمتعة الفنية والأدبية.

إن حياة الغربيين حياة متحررة بل واتخذ الفكر الغربي الحرية مبدأه الأفضل ينظر الغربيون من خلال نظرتهم في الحرية هذه إلى الالتزام ولذلك لا يريدونه ولا يقبلونه ولكن إلى أي بعد يتمكنون من ممارسة هذه الحرية، أليست حياتهم الحرة حياة ملتزمة بتصورات ونظرات وصور وأوضاع لا يستطيعون الفكاك عنها لقد انطبعت أفكارهم واتجاهاتهم بصور فرضتها عليهم أحوال سياسية واقتصادية وفلسفات حديثة ومدنية يتصل أحد أبعادها بالنظريات الاغريقية القديمة والأساطير اليونانية، ويتصل بعض أبعادها بالفلسفات الحديثة، مثل الدروينية والفرويدية والأبيقورية والميكاولية وكلها تترك بصماتها على الحياة الغربية، وعلى نفوس أفرادها فآداب هذه النفوس تتمرغ في أوحالها.

ولكن المفكرين في أوربا وتلامذتهم في الشرق يغلفون أنظارهم بأغلفة المصطلحات والأسماء البراقة التي تخدع ببريقها الكاذب وتبهر العيون، فالذين أصيبوا بمركب النقص أمام الحضارة الغربية تنخلع نفوسهم أمام الأفكار المستوردة فيظنون تكميم الأفواه حرية، ويرون الحيرة والقلق سعادة وحبوراً ويجدون في الخنفسية والهيبة روعة وجمالا،

ويعدون الالتزام بالمعاني الإنسانية الجميلة تكبيلا وقسراً وقيداً، ومن خلال التصورات الناشئة في الغرب والقلق الحائر ينظر الناس إلى الالتزام ويعدونه عدواً للحرية التي يريدونها سواءاً يجدونها أو لا يجدونها.

ولكن الالتزام في الإسلام إنما يتلاءم مع الحرية ويخدم الإنسان والإنسانية.

الأدب تهذيب وإيناس لا تخميش وإهانة

الأدب يهذب النفوس تهذيباً ويهيء لها لإمتاع والمؤانسة وقد تزداد روح المؤانسة فيه فيدغدغ النفوس دغدغة ويملأها بشراً وبشاشة، وقد تشتد فيه الحرارة فيثير النفوس إثارة ويملأها ثورة وشرارة، وبذلك كله يفعل الأدب في النفوس فعل السحر ويؤثر عليها، وتشتاق النفوس إلى الأدب، ويتجاوب معه وجدان القارئ ويتأثر به بحسب قوته وتأثيره وهما يأتيان إليه من شعور صاحبه الفياض ومن قدرته البيانية الرائعة، وبكل ذلك يكون الأدب محبوباً لدى الجميع، ويكون عتاداً ووسيلة في أيدي القادرين عليه، لكن الأدب إذا صار أداة في يد أديب يفلت منه زمام هواه فينساق إلى رغباته وشهواته أو غريزته الشيطانية فمعاذ الله من هذا الأدب- لأنه يصبح وسيلة لهتك الحرمات وإهدار الكرامات فهو يرفع الستار عن العورات، ويثير القاذرات ويجرح المشاعر والمكرمات ويثير البذاءة أوالفجور.

ويحب هذا الأدب ويهتم به أولئك الذين يرغبون في أن يرتعوا في مراتع الإباحية والضلال فهم يستحسنونه ويدعون إلى حريته ورواجه ويسمون حريته حرية الرأي ويثنون على أصحابه ويحوطونهم بهالات الإبداع والبراعة، ولكنهم مفسدون في الأرض فهم يريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ويريدون هدماً وتخريباً للآداب الإنسانية الكريمة

ومن هذه الطائفة ذلك الرجل المدعو بسلمان رشدي الذي كسب مالاً وأهان الإنسانية بولوغه في كرامة الذات النبوية الشريفة تلك الذات الطاهرة النبوية التي كانت رحمة للعالمين رؤوفاً بالمؤمنين، النبي الكريم العظيم الذي نشر في الدنيا القسط والعدالة وحرر الإنسان من أغلال الكفر والضلالة وأعاد إلى كلمات الفضيلة والخير والإنسانية معانيها المسلوبة وربط بين جنسي الرجل والمؤأة برباط الطهر والمحبة وأحل محل كبرياء الرجل على المرأة وتعسفه عليها احتراماً منه لكرامتها وشرفها.

هذه هي الذات الكريمة المثالية التي ولغ في شرفها وكرامتها شاب منكوس السيرة والأخلاق اسمه سلمان رشدي إنه لم ينل بعمله هذا إلا لعنات المؤمنين واستحق من كل رجل نبيل نزيه في الدنيا التقريع والعقاب.

لقد كان من واجب هذا الرجل التائه إذا كان يكتب شيئاً اسمه الأدب أن يختار أسلوباً نزيهاً أو يتجنب

على الأقل من أن يمس رجلاً طاهراً بسوء وأن يسيء إلى دين من الأديان، فإن الدين هو صلة العبد بربه وهي ترتفع عن سفاسف الدنيا ومعاقرها والنبي هو الرجل الطاهر الكريم الذي يحترمه كل إنسان ولكن نكسة في الخيال وإسفافا في الفكر في رأس إنسان مارق قد يسوقانه إلى شر كلام وقد يظن هذا الإنسان المارق أنه قام بعمل جديد واستخدم حقه في حرية الرأي، لا والله ليس هذا عملاً جديداً ولا حرية في الرأى، إنه إساءة أدب يستحق عليه صاحبه أن يعاقب شر عقاب.

إنما العمل الجديد هو ابتكار في العمل وأي ابتكار في أن يشتم رجل منكوس رجلا نبيلاً كريماً، وحرية الرأي هي أن لا تداهن في إظهار حق كريم، وأما أن تصرح بالفسق وتتكلم بالبهتان فلن يكون ذلك حرية الرأي ولن يكون أدباً كذلك لأن الأدب هو الكلام الذي يأتي بالإيناس والإمتاع والتحريك والإثارة وهو يصدر من شعور نبيل وتعبير جميل، ولكن عمل سلمان رشدي في كتابه الروائي كان مجرداً مما يستحق أن يوصف بالأدب وليس الإقبال عليه من طائفة من الناس إلا لأنه أساء إلى الإسلام ونبي الإسلام، والإساءة إلى الإسلام هواية فاسقة كافرة يتلهي بها أعداء الإسلام، يتلهون بها ثم يتسترون وراء مصطلح الأدب الذي لا ينطبق هوالآخر على كتاب رشدي.

ليس الأدب محصورا في الهوى والشباب

هل الكلام الأدبي محصور في الهوى والشباب؟

ليس صحيحا ان يحصر الكلام الأدبي في الهوى والشباب أو يقال لكل كلام يتصل بجوانب ايجابية بناءة للحياة أنه لا يدخل في باب الأدب، فيصبح الأدب بذلك محصورا في أيدي المتلاعبين والمتعابثين ثم يبلغ الأمر في ذلك إلى مذهب العبثية، ويعد الكلام اللاهي وحده أدبا لمجرد أنه غير جد.

مصدر التأثير والإثارة في الكلام الأدبي:

ما هومبعث التأثير والإثارة والجمال في الكلام الأدبي؟ هل هو كونه كل شيء سوى الجد والإيجابية والبناء؟ أم هو غيره، فإننا إذا نظرنا إلى الكلام من هذه الناحية لوجدنا أن الكلام في بعض الأحيان قد يكون أكمل تعبيرا وأفصح لفظا ولكنه يخلو من التأثير والإثارة، وقد يكون في أسلوب عام بسيط، ولكنه يأتي من التأثير ما

لا يأتي به كلام ذو عبارة فخمة جميلة، وإنما يأتى التأثير في الكلام عند ما يحل في محله النفسي الصحيح وعند ما يوافق شعور القائل بشعور المخاطب، فأهم أسباب التأثير الأدبي في الكلام هو مخاطبة شعور صاحب النص الأدبي لشعور القارئ أو السامع، ونزول كلامه في محل انفعاله، ومن هذا الاتصال أو التفاعل الشعوري بينهما تنشأ القوة والتأثير في أدب أديب أو كلام شاعر وذلك باختيار اللفظ المناسب للتعبير عنه، ولكنه إذا ضعفت موافقة شعور القائل مع شعور السامع ولم تربط بينهما رابطة شعورية، فالكلام يفقد تأثيره وتذهب عنه روعته، فالربط بين الطرفين والتلاقي بينهما لا بد منهما في الكلام الأدبي فالأديب قد يكون بليغاً في كلامه ولكن كلامه لا يخاطب شعور القراء والسامعين إما لإنشغال خواطرهم عنه لعدم صلاحيتهم لفهمه، أو لصعوبة أو تعقيد في كلامه يعوقان عن إساغته وفهمه، فإن كلامه لا يأتى بنتيجة مقصودة.

التفاعل النفسي بين الطرفين:

ولذلك نجد من أهم المؤثرات في الكلام الأدبي هي صلاحيته لفتح قلوب السامعين والقراء، واسترعاء قدرتهم للملاحظة الشعورية أو التفاعل النفسي منه، ثم لا فرق بين أن يكون الكلام في موضوع الهوى والشباب أو في موضوع الدين والأخلاق، بل قد نجد في بعض النصوص الأدبية التي تتصل موضوعياً بالدين والأخلاق قوة وتأثيراً

أو جمالاً ومتعة أكثر مما نجد في بعض الأحيان في النصوص الأدبية التي تتصل في موضوعها بالهوى والشباب، ونجد أمثلة من ذلك في عدد من النصوص التي وردت عن أصحاب التقوى والورع والدين، وفي موضوعات دينية أوعلمية جادة، وذلك عند ما تخاطب هذه النصوص مشاعر قلوب السامعين أو القراء وتروعهم، وتحل صورها التعبيرية في محل هذه القلوب الحساسة، كما وجدنا في بعض خطب الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام صحابته المجيدين للكلام ولقد استعرضت نموذجاً من هذا القبيل للرسول صلى الله عليه وسلم لإزالة الجدة التي كانوا وجدوها في أنفسهم عند تقسيم الفيء

تأثير الكلام في إنشاء الانفعال النفسي:

وأشير هنا إلى وصف وصف به ضرار بن ضمرة على بن أبي طالب رضي الله عنه عند سؤال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عن ذلك بقوله صف لي علياً، انظروا إلى روعة الكلام وتأثيره في إنشاء الانفعال النفسي للسامع والقارئ، قال! أشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين وكأني أسمعه وهو يقول "يا دنيا ! أبي تعرضت؟ أم لي تشوفت؟ هيهات هيهات غري غيري قد بتتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير آه

من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق" يقول الراوي إن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وهو في معارضته ورفضه سياسياً لعلي بن أبي طالب لم يتمالك عينيه وبكى وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك.[1]

لقد كان الأمر في هذا البيان الأدبي وتصور السامع للظاهرة المذكورة فكلاهما كانا يعرفان زهد سيدنا علي بن أبي طالب وتحرقه للآخرة، وتضحيته لراحته ومتعته المادية لينال خيراً في الآخرة، ورضاً عند الله، وكان كلاهما يحبان هذه الصفة ويسعيان لها ويعدانها من أعظم الخير ثم كان بيان هذا الوصف بياناً واضحاً موافقاً للواقع وكان السامع يعرف ذلك ويصدقه قلبه، فكان لا بد أن يحصل هذا التأثير.

---

١ صفة الصفوة لابن الجوزي.

أنماط جديدة للأدب؟

إذا تعرى رجل وتجرد عن ملابسه، ودخل في السوق أو ظهر أمام جمهور من المثقفين والعقلاء عارياً لتعجب الناس وقالوا إنه مجنون، وإذا قام رجل ونزع ملابس إنسان أو إنسانة وعراه عن اللباس وأظهر للجمهور مجرداً مكشوفاً أو مجردة مكشوفة قالوا إنه رجل خبيث اعتدى على الإنسان وأهان كرامته وشرفه، ولكن إذا كشف رجل نفسه وأبان عوراته أمام الناس بقلمه الأدبي أو كشف إنساناً آخر بتعبيره الأدبي أو بريشة فنه، أظهره أمام الناس عارياً قالوا إنه أديب فنان، وعدوا عمله إنتاجاً رائعاً، وإذا استطاع هذا المدعو بالأديب الفنان أن يعرض إنتاجه هذا بأصرح شكل و أكثره كشفاً عدوه نابغة الزمان وعبقري الفن، هذا هو المنطق الذي نعيش فيه اليوم، وإذا قلنا يا ناس! إنه مجون وإباحية وهتك للعورات، قالوا أنتم رجعيون جامدون لا تعرفون الفن ولا تقدرون الجمال، أنتم

رجال المسجد والصومعة وأصحاب الجهالة، لم تبلغوا إلى شرفات العلم والمعرفة والذوق الإنساني الرفيع.

وإذا تكلم رجل بكلام مضطرب لا يرتبط معناه بعضه ببعضه ولا يتصل آخره بأوله، ولا يسير على خط واحد، قالوا عنه إنه لا يعرف ما يقوله، ولكن رجلاً إذا قدم مثل هذا الكلام باسم الأدب والفن على صفحة من صفحات المجلة أو الجريدة، وأظهره للقراء منشوراً قالوا إنه أديب وفيلسوف، وإن كل فقرة من كلامه فكرة عالية وفن عظيم، أما الإغلاق الذي قد يبدو فيها فإنه ليس فيها بل إنه في عقل من لا يفهم هذا الكلام ولا يعرف قيمته الفنية، وإذا قلنا يا ناس إنه كلام مبهم ومضطرب لا ينطوي على معنى مستقيم سليم، قالوا كفاكم أن تقرءوا الكتب الصفراء، ما لكم وللفن والإنتاج الأدبي الرفيع؟

هذه هي العقلية التي بدأت تسرى اليوم في عقول الأدباء المحدثين وأصحاب الفكر والمولدين من أبناء الثقافة الازدواجية، الثقافة الغربية الوافدة والثقافة الشرقية الموروثة، فقد أرادوا الجمع بين الثقافتين فلم يكن منهم إلا أن ينقضوا الأصيلة منهما ويحلوا محلها الوافدة، استهانوا بما ورثوه من علم وآداب، وهاموا حول ما يغزوهم من الغرب من فنون ومذاهب ولوثات فكر وأدب.

نواجه اليوم من هذا اللون أنماطاً جديدة وأساليب منوعة، واتجاهات متطرفة، هي تصورات وتأملات نشأت

واختمرت في بيئات أجنبية كانت لها أوضاعها وقضاياها ومشاكلها، فانطبعت بطبيعتها الخاصة وحملت نفسيتها الخاصة، فكانت كملابس فصلت على أجسام معينة ولكن طائفة من مثقفي الشرق تصر على أنها هي الملابس الموافقة لكافة الأجسام وإذا لم تتفق هي مع الأجسام فالنقص في الأجسام لا في هذه الملابس.

مع أن الأدب هو كلام معبر عن شعور صاحبه نحو حياته أو حياة غيره ولا يؤدي هذا الكلام دوره الأدبي إلا إذا استجاب له وجدان سامعه أو قارئه، مهما كان موضوعه ومهما كان جانبه من جوانب الحياة ولكنه إذا لم يتيسر فهمه ولم يتمكن الوجدان على إساغته لكان أقرب إلى الفلسفة أو اللغز ولكل منهما مكان، ولكن للأدب مكاناً آخر.

لقد أصبح من منهج طائفة من الأدباء اليوم أن يعبروا عن تصوراتهم وانطباعاتهم بمجموعة من الكلمات، لها دلالات هم أعرف بمصداقها ثم لا يكترثون بأن يصل معناها ومرادها إلى فهم السامع أو القارئ ويتلقاه إدراكهما، هذا منهج دخل على الأدب من غير بابه وهو جاء إلينا من أناس كانت حياتهم قلقة بتأثير الجو الفكري القلق في بلادهم التي مرت من ثورات وتحولات عقدية وثقافية، فقد يكون هذا المنهج تنفيساً لهم عن كربهم، ولكنه لن يكون منهجاً متلائماً لغيرهم.

أما نحن المسلمين فنستقي مبادئ أدبنا من المنهج الذي ينبع من البيان القرآني المشرق ومن أدب رسولنا العظيم، فقد ازدان كلامه صلى الله عليه وسلم بالبيان والتأثير وقد رحب من غيره أيضاً بكلامه الأدبي النزيه والشعر الجميل الهادف وأثنى على ما صلح منه وطاب، وهو الذي نبني عليه تصوراتنا للأدب الإسلامي.

بين التعقيد والوضوح

تأثير الآداب الغربية:

الأدب تعبير عن الحياة ولا يكون الأدب ناجحا إلا إذا حسن تعبيره عنها وأدى حقه، والحياة في مجتمعاتنا الإسلامية مصطبغة بالصبغة الإسلامية ولا يشذ عن هذه الصبغة إلا حياة قلائل من الناس، ممن نشأوا في أحضان الثقافة الغربية واصطبغت نفوسهم بصبغتها البعيدة عن الصبغة الإسلامية، فهم يفكرون غير ما نفكر ويحبون غير ما نحب ويكرهون غير ما نكره، ولكنهم قليلون في العدد وإن كانوا غالبين علينا سياسيا ومدنيا، فبأيديهم تصريف كثير من الشؤون الاجتماعية والمدنية، وبذلك يبدو عنهم أنهم هم الممثلون الحقيقيون لمجتمعاتنا، لكن الواقع هو أن مجتمعاتنا بريئة من تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة، وإن كانت مجتمعاتنا تخضع لهم بحكم سيادتهم عليها، أما الأدباء منهم وهم الذين نشأوا مثلهم في أحضان الثقافة الغربية فهم

مثلهم لا يمثلون أمتهم ولا يصورون إلا ملامح ثقافة هي مستوردة، ولا يعبرون بأدبهم إلا عن حياة ليست أصيلة، بل هي حياة ثقفتها النظرة الغربية وصبغتها التصورات الأجنبية بصبغة أجنبية، فلا نجد فيها القيم إلا مرقعة بالتصورات الغربية ولا نجد فيها أسوة يحتذى بها إلا من حياة زعماء التصورات الغربية، إلى أن أصبح الإنتاج الأدبي العربي وغير العربي اليوم مقهوراً بتأثير المناهج الأدبية الغربية وأصبح أسلوب الكلام منمقاً بزينة بالمنهج الغربي المستورد، ومنها التزامات المنهج التعبير الناشئ من حياة الصناعة واالهندسة الغربية تبدو بها المعاني كأنها أدوات منزلية لا يعبر عنها إلا التعبير الهندسي، أما المعاني فهي أيضاً لا تطبق على مقاساتنا الحقيقية بل تفصل مثل الثوب على المقاسات المستعارة.

فكاد الأدب يصبح في العهد الحديث لباسا يصنع ليصحح أجسامنا وينسقها تنسيقا جديدا لا ليوافقها ويمثلها تمثيلا صحيحا لائقا.

لقد كان التعبير العربي متفوقا على غيره بأنه كان امتدادا لمنهجه الأول لم يتغلب عليه منهج مخالف طيلة تاريخه الطويل، فلم يستعص فهمه على أبناء اللغة العربية في عصر من عصورها فكل من ولد ونشأ في العرب أو قرأ نصوص أدبهم الأولى استطاع أن يفهم تعبير كل عهد من

العهود العربية، لأن التعبير العربي في عهوده كلها يدور في فلك واحد، ولكن تأثير الفكرة الأدبية الغربية ومناهج التعبير الغربي أثرت على الأساليب الأدبية العربية اليوم، فكادت تصبغها بصبغة تخالف صبغتها الأصيلة، فالذي يجيد فهم كلام نبغاء الأدب العربي القدامي قد يعجز عن فهم كتابات الأدباء المعاصرين، فقد كان أدباءنا السابقون يتكلمون عن الإنسان الحي المألوف ويعرضون تجاربهم المستقاة من حياتهم المألوفة أما أدباءنا المتغربون اليوم فيكتبون عن إنسان مبهم مجهول ويعبرون عن أوهامهم وعن أسرار حياتهم بتعبيرات ومصطلحات متطرفة.

سمات الآداب الغربية: التعقيد والإبهام:

وقد يغلب على المنهج الغربي للأدب التعقيد والإبهام بحيث يصعب على قارئ أن يتمكن من تحديد المفهوم مما يكتب حتى لا يخرج القارئ من قرائته إلا كما دخل فيها، أراد أحد العلماء المتمكنين على الأدب أن يقرأ كتاب الأديب الروسي باسترناك" الدكتور زواغو" الذي نال عليه جائزة نوبل فما تصفح عدداً من صفحاته إلا وسئم من إبهام ما يريد مما يكتب فترك هذا العالم الكتاب ولم يكمله.

وقرأت للأديب المصري المعروف الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني كلاماً علق فيه على تعقيد كتابة أحد

أهل الفكر والأدب الأوربيين وهو الفيلسوف الألماني هيجل سلخراً من أسلوب بيانه:

"وتمنيت وأنا أدير عيني في كتبي على رفوفها، ولو أن هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم بينوا لنا، أولى أنا على الأقل، ماذا يريدون أن يقولوا؟ عجيب أمرهم والله قرأت مرة لأحدهم، وأظنه (هيجل) كتاباً في فلسفة التاريخ، فخرجت منه كما دخلته وقلت لنفسي.

إما أني حمار وإما أن هذا الرجل لا يحسن العبارة عما في رأسه ولكنني أفهم عن غيره فلماذا أراني لا أفهم عنه.

ودارت الأيام ووقع في يدي كتاب رجل أمريكي اسمه دريبر، يكتب كما يكتب خلق الله لا الألمان فإذا فيه فصل طويل عن العرب يعد تطبيقاً لنظرية هيجل التي لم أفهمها فسألت نفسي: لماذا فهم (دريبر) عن (هيجل) ولم أفهم أنا عنه؟

وأسأت الظن بنفسي، واعتقدت أن لي نقصاً في التدريب العقلي، وراجعت هيجل وكررت إلى هؤلاء الألمان المعوصين كرة المصمم المستميت، ولكن مضغ الجلاميد أعياني فنفضت يدي منهم ومن نفسي يائساً.

الآداب الغربية تتسكع في دياجير الظلام:

إن آداب أوربا منذ أن فصلت حياتهم عن الدين أصبحت تتسكع في مهامه الخيال بحيرة وضجر، فهي تتعشق الجديد المتطرف وتسأم القديم الرشيد، إنها تنظر إلى

الخنافس والهبيين فتشعر فيهم بسعادة وطرافة، وتنظر إلى حياة راهب هندي فتجد فيها فلسفة وعمقاً، أما حياة الإسلام المعتدلة فلا تعجبها ولا تنال منها تقديراً، وهناك حكاية تشير إلى هذا الموقف العجيب، لقد تحدث يوماً عالم أوربي أمام عالم هندي عن منجزات أوربا العلمية والتكنية مفتخراً بها فقال له العالم الهندي نعم لقد تقدمتم في العلوم والهندسة حتى عرفتم كيف ترسلوا أقماراً صناعية وتطيروا في الفضاء مثل الطائرة ولكنكم لم تعرفوا كيف تعاملوا الشعوب وتسيروا على الأرض مثل الإنسان، هذا الرجل الأوربي هو الذي صنع أدبه كما صنع فكره واتجاهه فأدبه خال من البراعة والطهر وتعبيره خال من الوضوح والبيان فهو يرسف في قيود الضلال والإبهام.

فمن الواجب علينا أن نحافظ على أصالة أدبنا أن نجعله تعبيراً مخلصاً لحياتنا وتصويراً كريماً لآمالنا وآلامنا ليمكن له أداء دوره المطلوب في خدمة أمتنا وتوجيهها إلى غاياتها وأهدافها.

الكلمات بين معانيها ومفاهيمها

الكلمة اللغوية حينما يعم استعمالها لا يبقى لها مجرد معنى لغوي محدود، بل إنما تلحقها تصورات عديدة تأتي إليها من الأجواء والأحوال التي يكثر استعمال الكلمة فيها، بقصد وإرادة، أو بدون قصد وإرادة، وقد تلتصق بها التصورات فتصبح بمثابة معنى من معانيها اللغوية، فكأن الكلمة وضعت لتلك التصورات الطارئة الجديدة منذ الأول، ولكن قد تزول عنها هذه الأجواء لاستعمالات لها في مناسبات أخرى ذات تأثير خاص، فتزول عنها التصورات الطارئة وتدخل الكلمة في أجواء جديدة تسبغ عليها تصورات أخرى، ومن أمثلة ذلك كلمة أنف الناقة بمعناها العام لم تكن تحمل حالة حسنة ولا سيئة من ناحية اللغة ولكنها حملت معنى الإهانة والذلة بسبب لحوق تصورات قبيحة بها فكانت تتسبب لإهانة وتحقير للقبيلة المسماة بها فشكى أبناء القبيلة ذلك إلى الشاعر

الكبير الحطيئة فقام بشعره المؤثر بإزاحة التصور القبيح عنها بقوله.

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم
ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فانتقلت الكلمة إلى حالة المدح والإعزاز فكان أبناء القبيلة يرفعون رؤوسهم ويقولون نحن بنو أنف الناقة.وقد يتخذ هذه الظاهرة رجال من الأذكياء في الأدب مكيدة وحيلة بل ومؤامرة أدبية ضد خصومهم أو في شأن من يريدون به خيراً أو شراً، فيتصرفون بمعاني الكلمات بتخصيصها بأحوال دون أحوال، ومن أمثلة ذلك في عهدنا الحديث ما يتصرف به رجال الأدب والسياسة الغربيون من مفاهيم كلمات والتصورات عنها، وذلك بتخصيصها بمفاهيم فيها عزتهم وعزة مدنيتهم وحضارتهم، وذلة غيرهم من أهل الشرق ومثال ذلك كلمتا التقدم والرجعية، فإن كلمة التقدم في معناها اللغوي كلمة عامة غير مختصة بوجه دون وجه من معانيها اللغوية، ومعناها اللغوي هو السبق على الآخرين في عمل ما، أو في صفة ما، ولكن العالم الغربي المعاصر خصص هذه الكلمة بكثرة استعمالها خاصة لحضارته المادية ولمدنيته المعاصرة، واستغل هذا الاستعمال استغلالاً لمصالحه، واتخذه عنواناً لتقدمه وفضله هو على غيره من الجنسيات الشرقية، والإسلامية بصورة خاصة، وحصرها في صور الحياة المدنية والفكرية التي تخص

الغرب دون غيره، فأصبحت الكلمة لا يتبادر إلى الذهن منها معناها في صورته الغربية المعاصرة وحدها، مع أن التقدم بمعناه اللغوي كلمة عامة تنطبق على كل من ينطبق عليه معناها اللغوي ومثال ذلك المسلمون أيضا، فقد تقدموا في ماضيهم تقدما عظيما وسبقوا على غيرهم من أمم الشرق والغرب في تاريخهم الأول، ولا يزال سبقهم باقيا في عدد من جوانب الحياة الاجتماعية والفردية، منها دعوتهم إلى العدالة الاجتماعية والمساواة والتزامها في الحياة العملية، وما آمن بها ودعا إليها الغرب إلا حديثا، وسبق المسلمون في التأكيد على حقوق الإنسان والوحدة الإنسانية، وذلك قبل أربعة عشر قرنا عند ما أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن "كلكم من آدم وآدم من تراب" لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى" وأعلن بأن أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا الخ.

وأما الغرب فلم ينادِ بما يشابه ذلك إلا في القرن الحالي، وذلك في بيان هيئة الأمم المتحدة التي وضعتها شعوب العالم كلها، وتقدم المسلمون في اختيار طريق الاستقراء الذي بنى عليه الغرب جهوده العلمية والتجريبية التي حاز بها رقيه العلمي الحالي، ولكن كلمة التقدم مع ذلك لا تخص إلا الغرب، ولا يعرف انطباقها إلا على الغرب دون المسلمين، ولقد صبغها الغرب صبغة لا

تنطبق بعدها إلا على التقدم الغربي وحده، فلقد فعل ذلك بحصر استعمالها مع التصور الغربي الخالص للتقدم والسبق حتى صار هذا التصور محيطا بالكلمة، وداخلا في مفهومها.

أما كلمة الرجعية فهي كلمة عامة أيضا بمعناها اللغوي، وهو الرجوع إلى السابق، ولكن الغرب لاستعماله الخاص لهذه الكلمة ربط بها تصورات قبيحة، وجعلها محصورة في معنى الرجوع إلى التخلف والجمود، والجهالة التي كانت الأمم الأوربية واقعة فيها في ماضيها، فرجوعها إلى هذا الماضي رجوع إلى التخلف والجمود والجهالة دون شك، ولكن المسلمين لم يكونوا هكذا في ماضيهم فقد كان الإسلام أخرجهم من الحالة المتخلفة الجاهلية، ونهض بهم نهضة لا مثيل لها، فكيف يوافق لأهل الإسلام تصور الرجوع إلى الماضي في معنى التخلف والجهالة الذي كان يوافق الغرب الذي كان متخلفا حقا في ماضيه، جامدا في عقليته، بعيدا عن العلم والتعليم، فعودة الغرب إلى ماضيه إنما تصح في معنى العودة إلى التخلف والجهالة، ولكن عودة المسلمين إلى ماضيهم إنما يكون معناها العودة إلى التقدم والرقي والعلم الذي كانوا متفوقين في كل ذلك في الماضي، فكيف ينطبق تصور التخلف في معنى الرجعية للمسلمين، وكيف تنطبق

عليهم كلمة الرجعية في معنى العودة إلى التخلف والجمود والجهالة؟!

ولكن كلمة الرجعية أصبحت اليوم سبة تستخدم لكل من ينادي بالرجوع إلى ماضي المسلمين لأن الغرب أفسد تصور هذه الكلمة وحصرها في المعنى القبيح.

يستعمل الغرب وتلاميذه في الشرق هاتين الكلمتين للدعاية للحضارة الغربية الحالية، ولتحقير المدنية الإسلامية الماضية، ويستخدمونهما بحيث يظهر للناس السبق والفضل في كل خير للغرب وحده، ويظهر التخلف والجمود في كل شيء هو للمسلمين المنادين إلى ماضيهم المشرق.

وكذلك كلمة الأدب فإنها دخلت أيضا في الكلمات التي أفسد الغرب تصورها لكثرة استعماله لها في مفاهيم معينة وتصورات خاصة، فلم تعد الكلمة إلا عنوانا للتصور الأدبي النابع من حياة الغرب، وأفكاره، ونزعاته مع أن هذه الكلمة كانت يعنى بها في العربية وغيرها من لغات المسلمين تعبير للفضيلة، ومعاني الحكمة والسلوك الرشيد، في لسان بليغ موسوم بجمال المعنى، ونصاعة البيان، ولكنها أصبحت بتأثير الغرب موسومة بمعنى الأنسياب الوجداني، والفوضى الشعورية، والميوعة الفكرية، وانحصر استعمال الكلمة بسبب استيلاء العقلية الغربية على العقليات الأخرى في التصورات الغربية للكون والحياة

والإنسان، ودار في نطاق العقلية الغربية وحدها فنشأت من ذلك مذاهب واتجاهات لا ضابط لها ولا قيد، وراجت مفاهيم الأدب النابعة منها رواجا عاما فلم يعد يعرف من كلمة الأدب إلا هذه المفاهيم.

فإذا نطقنا بكلمة الأدب فكأننا عنينا كل شيء من الطرافة والعبثية والامتاع، مما تخبط معانيها خبط عشواء، فماذا نفعل إذن؟ أن أردنا إن تظهر من هذه الكلمة معانيها الأصلية التي نجد فيها ما يتلاءم مع كرامة الإنسانية، ومع ما هو في صالح الإنسان، ألا يجوز لنا إذن أن نقوم أولا على القاعدة الأساسية، لمعنى هذه الكلمة واستعمالها في معناها الرشيد الصالح، ولإبراز هذا الأساس نضيف إليها كلمة "الإسلامي" لنحدد بها مفاهيمها الأصلية لئلا يخطئ في فهم حدودها الصالحة مخطئ، ولا يعيث بمعانيها وتصوراتها البريئة عابث، وعند ما يتيح الله تعالى للناس أن لا يخطئوا في فهم معناها البري الصافي فلن نحتاج إلى إضافة هذه الصفة إليها، وحينئذ يكون استعمال الكلمة مجردة من الصفة المنكوسة، وحينئذ تتفق مع معناها الصحيح.

أليست الدعوة إلى الأدب الإسلامي بناءا على ذلك دعوة جاءت في أوانها وتحقيقا للحاجة إليها؟.

دراسة مذاهب الأدب الغربية بعيدا عن مركب النقص

إن المقارنة بين الأدب الإسلامي والمذاهب الأدبية الغربية موضوع لم يكن نال إلى الآن اهتماما لائقا به، فأولا نجد كثيرا من الناس يبدون استغرابا على إضافة كلمة "الإسلامي" إلى الأدب ويقولون كيف يصح أن يقسم الأدب إلى إسلامي وغير إسلامي، ويظنون أن الأدب الإسلامي لا يخرج من أن يكون موعظة وترغيبا وإنذارا في الدين، وذكر صلاة وصيام وأمور أخرى من هذا القبيل، وكيف يعد ذلك كله فنا وأدبا، ونقول إن كان صحيحا ما يقولون من أن إسلامية الأدب تجعله موعظة وإرشادا فما ذا رأيهم عن الوعظ والترغيب الذي تغلب عليه الصفة الفنية الأدبية، ويقوى فيه الأسلوب الأدبي، ألم توجد نماذج للوعظ والإرشاد لرجال الإصلاح الديني كانت متصفة بالصفات الأدبية الفنية فعدت أدبا، ألا نرى مواعظ العلامة ابن الجوزي ومن قبله مواعظ سيدنا حسن

البصري رحمهما الله، ثم أن الوعظ والإرشاد ليس وحده كل الأدب الإسلامي بل إن أدبهما جزء منه وإذا صرفنا النظر عن الوعظ والإرشاد والدين فإن الساحة تشتمل على أقسام مختلفة من الأدب الإسلامي وإنه ليعمل في الجوانب المختلفة المتنوعة من الحياة.

الأدب هو التعبير عن التجربة الإنسانية وإن للتجارب الإنسانية صلة قوية بالبيئة سواء كانت مجتمعاً أو أمراً خارجاً من المجتمع وهي تؤثر على الأدب.

والأدب عمل وجداني يقوم به الإنسان وهو يؤثر على وجدان القارئ أو السامع، فالقضية هي قضية الإنسان وحياته وبيئته، والإسلام عند ما يدخل في حياة إنسان، يسرى في جوانبها كلها ويسرى في بيئة الإنسان، ويؤثر عليها أيضاً. فلا غرابة في أن تسرى عن طريقها الروح الإسلامية في الأدب.

والإسلام ليس محدوداً وقاصراً في جانب خاص من الحياة أو جزء قاصر محدود منها بل إنه يسرى في جوانبها كلها، والأدب الإسلامي لا يرفض عدداً من جوانب الحياة بل إنه يرفض صوراً خاصة للأدب أو الحياة، صوراً فيها اعتداء وظلم على إنسان أو مخالفة لمرضاة الله، فالأدب الذي تظهر فيه صور من هذا القبيل يعد خارجاً من إطار الأدب الإسلامي، أما الصور والأحوال الأخرى من الأدب فلا ينافيها الإسلام ولا يجانبها الأدب الإسلامي.

لقد بدأ الأدب الإسلامي منذ أن بدأت نفوس الناس تتأثر بالبيان القرآني المعجز وتستفيد منه، ثم أخذ الأدب الإسلامي زاده، وقوته من كلام الرسول عليه السلام وتأثر بسيرته الإنسانية الطيبة ثم نال مددا من قرائح أصحابه الذين وهبهم الله خصائص وميزات أدبية بارعة فهؤلاء كانوا الرعيل الأول للأدب الإسلامي.

إن تاريخ الأدب الإسلامي طويل ومتنوع بمناهجه وأنواعه وهو ليس قاصرا في لغة واحدة ولا في بلد واحد، فإن نماذجه توجد في عشرات من لغات العالم وعشرات من الأقطار والبلاد ممتدا في قرون متطاولة فنماذجه الرائعة توجد أولا في اللغة العربية ثم في اللغة الفارسية والأردية والتركية ولغات أخرى يتكلم بها أهل بلاد يشكل المسلمون من بينهم أغلبية أو أقلية.

أما الاتجاهات الأدبية التي نشأت في قرون أوربا الأخيرة، فإن لها تاريخا خاصا بتأثير ما تغذت به أوربا الحديثة مما ورثت من أفكار الإغريق الفلسفية واتجاهاتها الأدبية، وما ورثتها من آبائها وتأثرت بها الطبقات المثقفة فيها، وفي فرنسا بصورة خاصة، ثم مرت حياة أوربا من خلال عملية الهدم والبناء الشديدة في مناهج حياتها وصورها، وفي أفكارها الأدبية والعلمية مما هزت حياتهم هزا عنيفا نشأت بها في نفوس أبناءها نفسية القلق والقنوط والتناقض، ساقتها إلى التمرد على الماضي وإلى طلب كل

جديد وإلى البحث عن الذات وإلى سوء الظن بالإنسانية، والتهافت على المادية، فتكونت من كل ذلك فيها اتجاهات وطبائع مختلفة منوعة تركت آثارا متطرفة على بيئاتها وأبناءها ومنها انتقلت بصماتها إلى اتجاهاتها النظرية والأدبية، فزالت أفكار ونشأت أفكار، أما في المجال الأدبي فظهرت أولا النزعة الكلاسيكية والمثالية ثم تمردت عليها نفوس واختاروا المذهب الرومانسي في الأدب ولكن الرومانسية هذه انقسمت أيضا إلى أقسام وأفكار مختلفة، وخضعت لها أذهان الناس ثم أعرضت عنها أذهان فلجأت إلى النظرة الواقعية في الأدب وتفرعت الواقعية أيضا إلى فروع وأنواع كما أعرض عنها نفوس من الأدباء ومالت إلى البرنانسية، كما مالت نفوس إلى المذهب الرمزي في الأدب، وغالت فيه نفوس ومالت إلى السريالية، وظهرت اتجاهات أخرى ذات تطرفات وحداثة وأثر الفكر الوجودي في الأدب فنشأ مذهب أدبي جديد دخلت به في الأدب لوثة من القلق واليأس والحسرة،على كل فقد مرت أوربا الحديثة من عهد مضطرب خبطت فيما بين اتجاهاتها ومناهجها المختلفة خلال قرونها الأربعة الأخيرة كان طابعها الغالب الإلحاد ومجافاة الفضيلة الإنسانية ولا تزال الحال على هذه الصورة.

ولكن هذا العهد الأوربي الذي سادت فيه هذه الاتجاهات والأحوال المختلفة كان عهد أوربا الزاهر من

ناحية القوة والعلم والسيطرة على الشعوب الضعيفة وكان من تأثير ذلك أن هجمت قيم حياتها وأفكارها على قيمنا الشرقية كقوة رهيبة ولا تزال قيمنا الشرقية وأفكارها في مواجهتها.

لكن لا يليق بنا مع كل هذا أن نغمض بصرنا عن الأفكار والنظريات والقيم التي نشأت أو تنشأ في غيرنا

فقد ينفعنا أن ننظر فيها ولكن بشرط أن لا ننسى إن هذه الأفكار والاتجاهات الناشئة في أوربا إنما نشأت وتنشأ من خلفيات خاصة من القلق، واليأس والتناقض والهدم والبناء فإلى أي حد يكون جديرا بنا أن نستفيد منها؟ نحن إذا نظرنا إليها وبحثنا فيها بعيدين عن مركب النقص الذي اتصف به المثقفون منا وبخاصة أولئك الذين درسوا على أساتذة أوربا وعلى مدارس فكرها، وانتقدناها نقدا صحيحا وفكرنا فيها تفكيرا سليما، فقد يكون العائد منه لنا خيرا.

والأدب الملتزم بالإسلام يحمل رحابة وسعة كبيرة وهو يمتاز في هذه الصفة، ويفوق على المذاهب والاتجاهات الأدبية الأخرى، فإنه إذا روعى فيه بما يقتضي الدقة والاحتياط فلن يكون لديه مانع من قبول أي أسلوب من الأساليب الأدبية ومن التفاعل مع أي خيال إنساني جميل، فإن صدر الأدب الإسلامي رحب في كل ذلك.

❁❁❁

العلامة السيد سليمان الندوي واهتمامه بالعربية

العلامة السيد سُليمان الندوي من أولئك الرجال العظام الذين لا يجود بهم التاريخ إلا قليلا.

اشتهرت شخصية العلامة السيد سليمان الندوي وتجلت ميزاتها عند ما ظهر نبوغه العلمي والعملي في أوساط العلم والاجتماع، وذلك بعد ما تخرج من دار العلوم ندوة العلماء ونال التربية العلمية والعملية من أستاذه الخاص العلامة الشيخ شبلي النعماني، فقد أشرف العلامة شبلي النعماني على بناء شخصيات ممتازة من تلاميذه أبناء دار العلوم ندوة العلماء ونجح في ذلك نجاحا باهرا، وكان في قمة تلاميذه الأعلام هذا التلميذ النجيب السيد سليمان الندوي.

وكان أول ما عرف الناس ميزته بين أقرانه هو ارتجاله لخطبة عربية أمام جمع محترم من المثقفين في حفلة ندوة العلماء السنوية الكبيرة حيث طلب منه أحد

القائمين بالحفل أن يخاطب الجمهور باللغة العربية، وهي كانت لغة بعيدة شديدة البعد عن أن تكون لغة كلام مرتجل في الهند لعدم ملائمة الجو، وقلة ورود المطبوعات العربية إلى الهند في ذلك الوقت، فلم تكن تنشأ الملكات العلمية والأدبية فيها إلا قليلا، ولكن الفتى السيد سليمان الندوي استجاب للطلب وارتجل الخطاب بالعربية ونال التقدير والإعجاب من الحاضرين، وقد بلغ بذلك سرور أستاذه الخاص العلامة شبلي النعماني مبلغا عظيما، وخلع عمامته ووضعها على رأس تلميذه كرمز تقديري لنبوغه، وواصل السيد سليمان الندوي اهتمامه في الدراسات العلمية الإسلامية والأدبية والبحث الكتابة في موضوعات كانت من أهم متطلبات الحياة الفكرية والعلمية المعاصرة وكان من نتيجة ذلك تأليفه ووضعه لمؤلفات قيمة فريدة في موضوعاتها، نالت التقدير والإعجاب من دوائر العلم والأدب، مثل كتابه عن الإمام مالك، و كتابه عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- سبعة أجزاء من السيرة النبوية الطاهرة.

وكتاب في شخصية الشاعر الفارسي العظيم الخيام، وكتابه في جغرافية أرض القرآن، وكتابه عن علاقات الهند بالجزيرة العربية، وكتابه عن ملاحة العرب البحرية وغيرها من الكتب وكل كتاب منها بلغ إلى المستوى الرفيع للبحث والتحقيق والعلم الغزير.

تخرج السيد سليمان الندوي في دار العلوم ندوة العلماء التي نادت بضرورة الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وربط العلم الجديد بالعلم القديم واختيار الأسلوب العلمي والأدبي البليغ فتجلت في خصائص شخصيته طبيعة هذا الجمع وظهرت آثاره في أعماله العملية والدبية والاجتماعية، فلقد كان عالما مسلما على الطراز المحافظ القديم وأديبا وباحثا على المنهج المعاصر الجديد، وكان يجمع بين العمق العلمي القديم وسعة الإطلاع وحسن العرض الجديد، وكانت نظراته نظرات علمية رزينة،وكان أسلوبه أسلوبا واضحا مفيدا، فلقد كان مثالا رائعا لما تريده وتتوخاه دارالعلوم ندوة العلماء لأبناءها.

وبرع العلامة الندوي في لغات عصره، وبخاصة منها في اللغة الأردية وفي لغة بلاده العلمية والأدبية، وفي اللغة العربية وهي لغة العلوم الإسلامية وكان يجيد التعبير ويحسن الأداء فيهما جميعا، وكان يختلف في ذلك عن غالبية العلماء المعاصرين له، بحيث أنهم لم يكونوا يختارون العربية كأداة تعبير لهم وقلما كان يسعهم ذلك، بل إنما كانوا يكتفون بالتعبير في اللغة الأردية، وذلك أيضا بأسلوب علمي متزمت.

اختار السيد الندوي اللغة الأردية بصورة عامة مجالا لأعماله العلمية والأدبية، لأن أصناف عمله كان أغلبها في

الهند وأبدى براعته فيها، ولكنه لم يترك اللغة العربية أيضا بل اختارها لعدد من أعماله بكفاءة وإحسان.

ولم يخل عمله فيها من الوضوح والروعة والاتزان، فقد ظهر فيها أيضا كرجل كفء قدير قلما كان يظهر مثله من أعلام العلم والفكر في زمنه، وأخص ببحثي هذا هذا الجانب الخاص، وهو "صلته بالعربية وأعماله فيها" وإذا استعرضنا عمله من هذه الناحية الخاصة لوجدناها في مجالات محدودة، منها مقالات كتبها للصحف العربية، وبخاصة منها مجلة" الضياء" مجلة دار العلوم ندوة العلماء العربية وكان المشرف عليها، وقد اهتم بإنشاءها فقد نشر فيها مقالات له علمية وفكرية وأدبية، وكتب بعض افتتاحياتها، أما في غير هذا المجال الصحفي فقد كتب مقدمات لعدد من الكتب العربية وهي لا تقل عن كونها مقالات علمية وفكرية قيمة، كما قام بتأليف كتب في دراسة اللغة العربية.

أما أسلوبه في كتاباته العربية فقد اتسم بالسلاسة الأدبية والرزانة العلمية وغزارة المعرفة، جمع بذلك بين السمات المختلفة، وكان يتخذ أسلوبا وعبارة واضحة متناسبة مع الموضوع، وهو من خصائص البلاغة في كتابات الأدباء، وذلك بأن يكون الكلام وفقا للمراد ومقتضى الحال، وأن يكون سهلا سائغا للقراء، وهي صفة تفوت كثيرا من المشتغلين بالكتابة.

ومما يلفت النظر في هذا الصدد هو أن الكتابة العربية بعد القرن الرابع الهجري إلى بداية العصر الحديث قد مرت من خلال غلبة الصناعة اللفظية وصعوبة الأسلوب والتكلف في التعبير، ولم يتغلب على هذه النزعة في الأدب إلا أحاد من الكتاب والأدباء في فترة التخلف، وممن سلم من هذا التكلف عبد الرحمن بن خلدون صاحب تاريخه ومقدمته المشهورة فإنه راعى إحسان اللفظ وإحسان المعنى جميعا، وأما في الهند من بين علماءها فقد اختار هذا المنهج العالم الجليل الشيخ ولي الله الدهلوي، وعدد قليل جدا ممن سلك هذا المسلك.

وكان اختيار الكتابة العربية صعبا في الهند، لأن لغة الكتابة والمخاطبة في هذه البلاد لم تكن اللغة العربية، وقلما يتمكن الرجل على سهولة التعبير إلا إذا كان على مران للعمل فيها، بحكم أن تكون العربية لغته الأم أو لكون اطلاعه ومطالعته للأساليب البليغة السهلة واسعا، وقد كان الندوي من هذا القبيل فقد اختار ذلك أولا كفكرة أساسية للمنهج التعليمي في الهند اتباعا لما قرره مؤسسو ندوة العلماء في لكناؤ، فقد كان مهتما بتعليم اللغة العربية ويرى ضرورة شديدة لنشرها وخدمتها، ويعدها أساسا لوحدة المسلمين، ولقد وضع كتبا لتسجيل تعليم اللغة العربية وتعريف الأساليب الجديدة منها، فله في ذلك:

"دروس الأدب" في عدة أجزاء صغيرة وكتاب "لغات جديدة" وهو معجم صغير للكلمات السائلة.

ولقد نعى فضيلته على تهاون أهل العلم في دراسة هذه اللغة وإتقانها، وغفلتهم في تعليم الطلاب إياها بطريقة مفيدة، إنه كتب في مقالة له نشرته مجلة "الضياء" هذه بلادنا الهند فيها نحو ثمانين مليونا من المسلمين، وفيها نحو مليون من يفهم لغة القرآن ويعرفها، وإن لم يكن لهم قدرة على التكلم بها، وتقدر مدارسهم العربية بألف من صغارها وكبارها، وطلبة العربية فيها مائة ألف أو يزيدون".

ويقول:

"على ذلك ما يؤلمنا ذكره ويشوكنا نشره إن هؤلاء الجم الغفير والعدد الوفير، أكثرهم بكم عن التكلم باللغة العربية، ولهم عي الكتابة البديعة السلسة المنسجمة فضلا عن الخطابة فيها مرتجلين، وليست كتابتهم إلا في أمور طفيفة من الفقه أو أبحاث سمحة في المنطق تمجها الآذان ولا تسمن ولا تغني من جوع العلم".

إلى أن يقول: "وأول من تنبه لسد هذا الخلل وملافاة هذا الخطاء دار العلوم التي أسستها ندوة العلماء بلكناؤ، فأفرغت جهدها في تعليم اللغة العربية قديمها وحديثها كتابة وخطابة وزادت في قائمة درسها كتب الأدباء المجيدين من السلف المكرام المجيدين الذين كتبهم ينبوع

الأدب ومادة لغة العرب مثل مصنفات ابن قتيبة الدينوري، وعبد القاهر الجرجاني، وقدامة بن جعفر البغدادي، وأبي الهلال العسكري، وجاحظ البصري، واستبدلت دواوين قدماء الشعراء بما تكلفته خواطر المحدثين المتأخرين بعد القرن الرابع، ثم وضعت معجما جديدا يضمن شرح الكلمات الدخيلة والمعرفة التي لا غنى عنها في فهم الجرائد والمجلات العربية وعينت معلما خاصا لتعليم اللغة المحدثة فيها" إلخ انتهى كلام العلامة.

ولقد استخدم العلامة الندوي قلمه للذب عن لغة الإسلام والحث على الاهتمام بها ودعمها، وللفت نظر القراء إلى إحراز القوة فيها وإعداد أسباب الاعتماد عليها كلغة واحدة تجمع شمل المسلمين وتوحد بينهم، وضرب لذلك مثالا مما فاقت به أوربا واستغلتها للوصول إلى غاياتها وذكر مزايا الإسلام وميزاته في الحياة الاجتماعية والعلمية والمدنية ، فقد ذكر في مقالة له كتبها ككلمة افتتاح لمجلة "الضياء" ويبدو منها أسلوبه السهل البليغ في الكتابة العربية أيضا.

"وبعد، فللإسلام مزايا تفوت الإحصاء دررها وتستغني عن الأبناء غررها، إحداها أنه دين وحدة الشعوب والأمم، ودين مواخاة البشر والنصيحة لعامة الصالحين، ومن الوسائل التي اتخذها لتحقيق بغيته هذه أن جعل للمؤمنين بقرآنه والخاضعين لسلطانه على ألسنتهم

ولغاتهم وجنسياتهم وألوانهم لغة خاصة وهي لغة كتابه المنزل من السماء يتفاهمون بها معاني القلوب ويتعارفون بها هواجس الأفكار، ويخطب بعضهم بها مؤنة بعض، فهي على تقلب من الأحوال لغة عصبة الأمم الإسلامية منذ قرون وأجيال.

قد رأى الآن رجال من نصارى الأفرنج في حلمهم أن يدعوا أممهم إلى الوحدة الإنسانية والمودة البشرية، فأحدثوا لغة واحدة، يسهل عليهم أخذها يتحادثوا بها الأقوام وينادوا بها إلى الالتحام، ولكن أولى النهي ممن يرون العواقب رأى العين يفتون أن لا بقاء للغة إلا إذا كانت لها دعائم من الدين والسياسة، يتعصب لها ذووها، ويسعى لها بنوها، وأن الإسلام قد قضى وطره منها منذ خلق، فجعل لأمه المنتشرة في أكناف الأرض مشارقها ومغاربها لغة تعم أطرافها وتضم أشتاتها وهي لغة نبيها المصطفى ودينها المرتضى وكتابها المنتقى، وهي لغة علومهم وآدابهم، وحضارتهم ولها أهل يحمون حوضها ويذبون عن حماها، فهي تبقى معهم مهما بقوا، وترحل معهم أينما رحلوا، وتحل معهم بأي أرض حلوا، وهي تجمع بين دفتيها دفاتر أربعة عشر قرنا، فيها الدين والشرع، والرواية والأثر، والتاريخ والخبر، والشعر والأدب، والجد واللعب، تلم بين طرفيها شعث ما تركه سلفهم وكسبه خلفهم، وما جاءت به طبائعهم وفاضت به ينابعهم

وفاضت به مجامعهم وزرعته أفهامهم وحصدته أقلامهم، وما أبدعوا من أنواع الطرف، وما أودعوا أوراق الصحف، فلغتهم هذه كنز خير لهم لا يفنى، وثوب فخر لهم لا يبلى، "(انتهى كلامه).

ترون كيف يتصف كلام العلامة بالرزانة والإبانة وبغزارة المعنى وطرافة التعبير وهو يرسل العبارة إرسالا ويزين أجزاءها بتساوق الكلمات والنسق، وقد يتمثل بفقرات من الأدب المأثور ويستعملها بتغييرات مناسبة كلما ظهرت مناسبة لائقة بالمكان ومثاله ما أتى به أثناء ذكره لظهور الصحف العربية في الهند لتقاطع ظاهر فذكر صدور جريدة الرياض واحتجابها. ثم صدور مجلة "البيان" وانقطاعها إلى أن قال: "ثم جاءت على فترة من رسل الكلام الجامعة لأبي الكلام، يعنى صدرت مجلة (الجامعة) للزعيم المسلم المشهور الشيخ أبي الكلام آزاد بعد فترة، بقيت الصحف العربية محتجبة غير صادرة، وبعد ذلك يذكر صدور مجلة (الضياء) من ندوة العلماء.

ولم يكن العلامة الندوي متقيدا بموضوع واحد في كتاباته العربية، بل إنها كان يطرق موضوعات مختلفة، فكان حينما محرر مقالات وحينا آخر كاتب مقدمات للكتب وقد كتب تعريفا ببعض الشخصيات الكبيرة وذكر صفاته بدقة ووضوح وبلاغة، ومثال ذلك مقدمته لكتاب العالم النابغ

الأستاذ عبد الحميد الفراهي "الإمعان في أقسام القرآن" وذلك بعد ما توفى الأستاذ الفراهي- رحمه الله-.

يبدأ كلمته فيها بقوله:"الدنيا دار العجائب من أعجب عجائبها وقوع ما كنت تحذر منه وحدوث ما لم يخطر ببالك ، بعثنا هذه الرسالة للطبع وصاحبها حي يرزق فلم يمض شهر حتى فوجئنا بموته وفجعنا بانخرام حياته، وكان رحمه الله آية من آيات الله في حدة الذهن وكثرة الفضل وسعة العلم ودماثة الخلق وسداد الرأى والزهد في الدنيا والرغبة في طلب مرضاة الله تعالى.

هو حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الأنصاري الفراهي، ولد رحمه الله سنة ١٢٨١هـ في قرية فريها من قرى مديرية أعظم كراه في الولايات المتحدة بالهند، وكان ابن خال علامة الشرق ومؤرخ الإسلام الشيخ شبلي النعماني ، تغمده الله برحمته، واشتغل بعد ما ترعرع في طلب العلم، فحفظ القرآن الكريم، وقرأ كدأب أبناء العائلات الشريفة في الهند اللغة الفارسية، وبرع فيها، فنسج قصيدة فارسية صعبة الرديف بارى فيها شاعر الفارسية الطائر الصيت خاقاني الشيرواني فأتى فيها بما أعجب الشعراء.

واشتغل بعد ذلك بطلب العربية فاستظل بعطف أخيه الشيخ شبلي النعماني وهو كان أكبر منه بست سنين، فأخذ منه العلوم العربية كلها من صرفها ونحوها، ولغتها وأدبها، ومنطقها وفلسفاتها، ثم سافر إلى لكناؤ مدينة علم

الولايات المتحدة وجلس في حلقة الفقية المحدث الإمام الشيخ أبي الحسنات عبدالحي اللكنوي، صاحب التصانيف المشهورة، ثم ارتحل إلى لاهور وأخذ الأدب العربي من إمام اللغة العربية وشاعرها المفلق في ذلك العصر الشيخ الأديب فيض الحسن السهارنبوري شارح الحماسة(أستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية بلاهور)الخ.

قد يبدو في ظاهر الأمر أن هذا الأسلوب السهل في بيان ترجمة شخصية من الشخصيات العلمية لا يتصف بصفة الإبداع مع أن هذه السهولة في البيان سبب كبير من أسباب الإجادة والإحسان، بحيث أنه يمكن به استعراض صفات المترجم له استعراضا دقيقا حسنا، فلا تلتوى فيه حقيقة من الحقائق ولا تخفيها المبالغة والمجاز، كما أن المعاني المتعلقة بالموضوع تلقي ضوءا أيضا على أمور وأحوال أخرى تتصل بالشخصية اتصالا.

ومثال ذلك أننا علمنا من خلال ذكر نشأته وحياته، مكانة مدينة لكناؤ كمركز للعلم والتعليم ومكانة الشيخ عبد الحي اللكنوي من علمي الحديث والفقه كما عرفنا أديب العربية وأستاذها الكبير الشيخ فيض الحسن السهارنبوري شارح الحماسة، وعرفنا أن العائلات الشريفة في الهند كان من دأبها في بداية تعليم الطفل تعليم القرآن الكريم، ثم الفارسية، ثم تعليم العلوم الأخرى، هذا أسلوب مفيد ومغني في كتابة التراجم، وقليلا ما نجده في

كتابات المتأخرين بيد أننا نجد نموذجا رائعا في هذا الموضوع في كتاب "نزهة الخواطر" للشيخ السيد عبد الحي الحسني، الذي ألفه في ثمان مجلدات كبار، ولقد تتلمذ العلامة السيد سليمان الندوي عليه أيضا، فقد ذكر في بعض حديثه أنه تعلم منه مقامات الحريري فلا عجب في أن يتشابه مسلكا هما في هذا الموضوع.

وهنالك مقالة علمية أخرى كتبها العلامة السيد سليمان الندوي بالعربية كمقدمة على كتاب" الرد على المنطقيين" نجد فيها القوة والسلاسة أكثر من سابقها كتبها العلامة الندوي وهو في سن متأخرة عند ما كان رئيس القضاة في ولاية بهوفال قبل انتقاله إلى باكستان. ووجدنا من اعتناء العلامة السيد سليمان الندوي بالأدب العربي اعتناءه بالشعر العربي كذلك، فقد قرض الشعر في موضوعات مختلفة ويدل هذا الشعر على إرهاف حسه وحسن خياله وحبه للفضائل والحكمة وقد تجلى في شعره القوة والإجادة والتعبير الطبيعي الجميل مع أن قرض الشعر العربي بأسلوب يتصف بالتعبير الطبعي الجميل قلما يتأتى لرجل لم ينشأ في جو عربي ولم يطل أو يتكرر اختلاطه برجال اللغة الاقحاح، ولكن الاهتمام بدراسة النصوص الأدبية البليغة مما أنتجتها أقلام العرب الفصحاء، قد يصبح بديلا من ذلك، وذلك الذي كان في سليقة العلامة الندوي الأدبية، على كل فإننا نجد نماذج من

هذا الشعر الجميل في مجلة" الضياء" نشرها العلامة فيها في حلقات وسماه باسم"الدرر والغرر" فمنها رباعيات وهي تسمى بالمصطلح العربي الدوبيت، ومنها قصائد حكمة واعتبار وقصائد وصف وتصوير، وذلك كله دليل على ما بلغت إليه قريحة العلامة الأدبية في اللغة العربية، ولم يكن العلامة شاعرا يشغل الشعر حياته بل إنما كان يقرض بمناسبات كانت قريحته تجود فيها ولم ينشر شعره لمدة من الزمن ولما اطلع تلاميذه وأصدقاءه على شعره ألحوا عليه بنشره فنشره في مجلة"الضياء".

فمنه قصيدة له في وصف الشمس عند مغيبها يقول فيها:

كأنما الشفق ممتد في الأفق
خمر معتقة شجت لمغتبق
خمر لعتقها أعلى همالية
شجت بماء غمام هامر غدق
كف الطبيعة تسقى الناس أكوسها
ويل لمن هذه الصهباء لم يذق
تحسو القلوب حمياها إذا نظرت
إلى السماء بأقداح من الحدق
والطير تشربها حينا تروح إنى
أوكارها صافرات السجع في حلق
والريح سائرة في روضة أنف
تهدى السرور إلى جوباء منتشق

دن من القهوة الصهباء في الأفق
والكأس تطفو به لا الشمس في الشفق
بل إنه برقع قان له شية
والشمس وجه حبيب بالحجاب يقى
بل إنما الشمس للصواغ بوتقة
قد ذاب عسجدها وانثج في طرق
بل إنما الشمس من أعمارنا قتلت
يوما فسال دم جار من العنق
فذلك الشفق المحمر من دمه
وقره ليله المستور بالغسق

ترى المعاني الطريفة في هذه القصيدة كيف يشبه صورا عديدة لمنظر الشمس عند غروبها بأشياء أو أحوال تحمل مشاعر طبيعية وخواطر رائعة، من الإحسان الرقيق.

يشبه الشفق الممتد في الأفق بالخمر المعتقة في أعلى جبال همالية التي كان الشفق قد امتد عليها.

ويذكر شرب الخمر بأقداح من الحدق، لأن شرب خمر الشفق لا يمكن إلا بالنظر من خلال حدق العيون، ويشبه الشفق في بيت آخر من الشعر ببرقع أحمر يخفي فيه وجه الحبيب وهو وجه الشمس.

ثم يشبه غيبة الشمس في الأفق تاركة منها شفقا ممتدا كأن الشمس قتلت من أعمار الإنسان يوما واحدا فخرجت الدماء من عنق هذا اليوم وانتشرت فكان منها

الشفق وغابت الشمس بعده في القبر وقبرها هو الليل الذي أتى بعد غروب الشفق.

وصف جميل وتصوير رائع وابتكار للمعاني وتشبيهات طريفة، فلا شك في أن كل ذلك يدل على قريحة العلامة الشعرية الوقادة، وإحساسه الشعري المرهف، مما يدخله في مصاف شعراء الطبيعة البارعين ولو لبرهة من الزمن.

وله شعر في الحكمة والنصيحة كذلك، فمنها قصيدة له يذكر فيها حقيقة المسرة في هذه الحياة يقول فيها:

هب أنني سلطان
هارون أو ساسان
خضعت ملوك الدهر لي
كسراه والخاقان
فالسود تحت أوامري
والحمر لي قد دانوا
ولي الزمان مساعد
لي الأمر والإيوان
ربض ينافي الفرقدين
وبينهم بستان
آجره من عسجد
بنيت به الجدران

ويقول:

وطنافس وغارق
غلت بها الأثمان
وأرائك ذهبية
فقدت لها الأقران
ويبيت لي رشا تخالف
جنسه الغزلان
في عينيها سحر وفي
أصداغها ثعبان
حسناء آنة الحديث
كلامها قرآن
بيضاء سحنتها
وأسود فرعها قنوان

إلى أن يقول:

فإذا الصباح لنا بدى
نعقت به الغربان
فتقلبت أحوالنا
حالت بها الأزمان
أتت الحوادث بغتة
وتهدم البنيان
أين الأسرة والمسرة
والدمى والشأن
فالدهر أفسد ما بنا

تشتت الخلان
وأبادهم حدث الزمان
كأنهم ما كانوا
فتحيرت نفسي وقالت
غرني الحدثان
أ أرى أنا في النوم هذا
أم أنا يقظان
فسمعت هتفا من منا
د أيها الحيران
أن السرور تخيل
يتخيل الإنسان

يذكر الشاعر في هذا الشعر الرقيق السليس كيف أن المسرة تأتي إلى الإنسان فيظن نفسه في سعادة وبحبوبة من العيش كأنه في جنة الخلد حوله الحور والغلمان وفيها أرائك ذهبية ما لها نظير في العالم، ولكن الأحوال تتغير بغتة وتزول هذه الراحة والرفاهية ويأتي الشقاء و الحرمان فلا يعرف هل كان حلما رآه قبل هذا أم حقيقة ويأتي النداء من هاتف يقول أن السرور خيال وليس أمرا ثابتا باقيا.

واختار العلامة الندوي الدوبيت أيضا وأبدى فيه قريحته، ولم يكتف العلامة الندوي بقول الشعر فيه، بل اختط لنفسه خطا مبتكرا جديدا وقدم فيه معاني الحكمة

والنصيحة، فجعله بذلك حاملا للنفع الخلقي، وزاد بذلك في ثروة هذا النوع من الشعر أنه ذكر خطه الذي خطه لنفسه في هذا النوع من الشعر، في مقالة له نشرها في مجلة "الضياء" بقوله: "مضى أكثر من عشرين سنة أن تفكرت بنظم معان حكيمة وأخلاقية مضاهاة لبعض شعراء الفرس مثل الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير والشيخ عبد الله الأنصاري وعمر بن إبراهيم الخيامي النيشابوري وسحابي النجفي وأمثالهم وقد سموا زنة شعرهم هذه "دوبيتا ورباعيا" وقد اقتفى أثرهم شعراء العربية في الدولة السلجوقية في القرن الخامس وبعده، وأبقوا الوزن في العربية كما هو بالفارسية، وخصصوا لمعاني اللهو والشرب والخمر، أي أخذوا منهم جانب الشر وتركوا جانبه الآخر الذي هو الخير.

ولما كان الوزن الذي اختاره من ضروب الهزج التي فيها زحافات كثيرة، ومفعول مفاعلن، فعولن، فعلن، عندي عير ملائم للذوق العربي فاستبدلت به مستفعلن، فاعلن، مستفعلن، فاعلن، وأعرضت فيها عن الهزل إلى الجد، وأخذت في نسج الرباعيات على هذا المنوال، وهذه نماذج من شعره الرباعيات.

لا يعرف الفضل بين الناس في الرتب
وان علا بعضهم بالمال والنسب
حتى الشدائد تبلوهم وتعجبهم

فـالنـار تفـرق بين العـود والخشب
إن الأنـام نيـام، عـيشهـم طيـف
وكل مـا هـو رأوا في نومـهم كيـف
ليست حقيقـة هـذا الـدهـر
إلا"لا"
فـلا ربيـع ولا بـرد ولا صيـف
قد كنت في الدهر قبل الأمس ذا،ولـدا
وأمس صـرت فتى، زهـر الشباب بـدا
واليـوم شبت وريب الـدهر أدركني
وليت شعـري ماذا بي يكون غـدا
لا تغـتر بسـرور ذاهب فـان
ولا تهـم بهـم نفس إنسـان
فبعـد مـا أكل الإنسان أكلتـه
حـلو الضـريب و مـر الصبر سيان
إن الحـياة كـتاب وهـو متسق
وكل يـومـك من أيـامهـا ورق
لا المـوت معـناه إلا أن تفـرقـه
الـريح فتنتشـر الأوراق تفـترق
يا لهف من كنزوا في الأرض ما كنزوا
أيحسبون بهـا يفـدون إذا عجـزوا
عن دفـع مـا في بطون الأرض من أل
سيعـلمون غـدا منها إذا بـرزوا

الشاعر الإسلامي عمر بهاء الدين الأميري في ديوانه مع الله

خطوة جديدة في الشعر العربي المعاصر:

الشاعر الإسلامي الكبير عمر بهاء الدين الأميري من المثقفين الذين عاصروا ظهور الصحوة الإسلامية في العالم العربي، وبخاصة عند ما ظهرت الصحوة في مصر بجهود الشيخ حسن البنا الشهيد، فكان شاعرنا العظيم ممن تجاوبوا مع أهداف هذه الجهود وذلك هو الأمر الذي عاني بسببه صعوبات في حياته وإن لم يكن قد دخل في غمار حركة الصحوة، ولكنه كرجل مسلم مؤمن بقيم الإسلام العظيمة والراثي لحال المسلمين في زمنهم الأخير رغم مجدهم العظيم في القرون الماضية وكرجل يحمل في قلبه آمالا وطموحا كان يرغب في أن يرى عودة مجد الإسلام الغابر وعودة المسلمين إلى حال المثالية الماضية، وكان يتمنى ذلك، وهذا الذي دعاه إلى أن يخط خطا جديدا في الشعر

العربي المعاصر، فيه رثاء على حال المسلمين وأسف على انحراف واقع في حياتهم وشكوى لذلك ودعاء وابتهال إلى الله ومناجاة بما يعانيه من هموم في نطاقه الفردي والاجتماعي معا، بتعبير رمزي حيناً وصريح آخر، ولقد أودع شاعرنا ذلك بصفة خاصة في ديوانه "مع الله".

الميزات البارزة للشعر الأميري:

وهذا الديوان خير ما تزود به الأدب الإسلامي في العقود الأخيرة، فقد امتاز شعره بالبراعة والابتكار، وبالإمتاع الغنائي، والروعة الوجدانية مع التعبير المؤثر عن التصور الروحاني الأخاذ، ففيه أطياف روحانية وخفقات قلب مهموم حيناً وجريح حيناً آخر، ومتفائل تارة وخائف تارة أخرى، وكل ذلك في جو نوراني حبيب، وهو بجوانبه المختلفة تصوير لقلب حساس نابض، وتعبير عن هموم وآمال نابعة من واقع الشاعر ومن تأملاته ونظراته في الحياة التي هي حوله والتي قد يلائمها الشاعر وقد يعانيها، ثم إن حياته الشخصية أيضاً كانت تحمل طابعاً خاصاً مختلفاً عن غيره، فقد جمعت حياته بين مستوى عيش ناعم رفيع ومكانة شرف اجتماعي وأدبي، ونال ثقة سياسية وشغل منصب سفير فوق العادة لبلده في بلدين إسلاميين مؤقرين، ولكن الفترة كانت من الفترات القلقة سياسياً تتصارع فيها القيم الشرقية والمبادئ الإسلامية مع القيم

الغربية الأجنبية والأفكار العلمانية الملحدة، وكان العالم العربي في صراع فكري ديني يكتوى بناره المجتمع الإسلامي، فكان الشاعر الكريم ينظر إلى ذلك بنظرة انزعاج وانتقاد، وكانت خلجات قلب الشاعر تثير صراعاً نفسياً في الشاعر لم يكن يستطيع التغاضي عنها، ثم حدث للشاعر من الجفاء السياسي والمحنة ما جرح قلبه أيضاً، فجاء شعره حديثاً عن كل ذلك تصويراً لمشاعره النابعة من كل ذلك متمثلة في تأملاته واستيحائه وأفكاره، فهو حيناً يشكو من جراحات خفيفة يشعر بها في قلبه فيشكو ويبث شكواه ويناجي ربه، بابتهال رقيق، ويحلق بهمومه في فضاء رحب وعالم باطني شفاف، و يستلهم معاني لطيفة مما يرى ويتصور.

إلى آفاق أوسع وأغوار أعمق:

يرى الشاعر أن الأجواء في عالمه الباطني أوسع من هذه الحدود التي فرضها عليه الواقع، فهو يحن إلى آفاق أوسع وأغوار أعمق فيقول:

خلني أسرح في البون المديد
خلني أطلق روحي من حدودي
خلني أسرى بأطواء الليالي
خلني اشتف أضواء الوجود
خلني أفنى هنائي وشقائي
خلني أفضى إلى كون جديد

خلني أجتـاز آفـاق الـبرايـا
خلني أجتـاح أبـواب الخـلود
أشـرق الديـان في غور كياني
خلني هيمـان في غيب شهـود

(ص:٥٢ من الديوان)

كيف النجاة من ورطة الشباب:

يرى الشاعر في نفسه فورة من شبابه وأواراً يصطلي لظـاه ولكنه يخاف ربه ويطلب تقاه، إنه يشكو عناء مـا يلاقـي في ذلك ويتذرع بالدعاء والابتهال إلى الله الذي لا ناصر غيره، وهومسند كل مؤمن يريد تقواه، يقول:

كيف أنجو يا خالقي من شباب
عـارم عـاصف التوثب ضاري
مستبـد بكل ذرات جـسمي
مستـفـز كـوامـن الأوطـار
كلمـا رمت كبتـه ثار جهـلاً
وتخطي عقـلي واعياً وقـاري
فـأنـا منـه مـا كبحت هـواه
في جمـوح وحـدة واستعـار
كيف أنجـو فـإنـه مستـفـز
في كيـاني وفي صميم نجـاري

(ص: ٦٩-من الديوان)

هل من مجيب؟

وينظر الشاعر إلى الأوضاع حوله ويرى أحوال الناس السيئة وتقصيرهم في المحافظة على معاني الإنسانية الرفيعة، فتثور ثائرته ويتحرك في نفسه عزمه ويريد أن يقوم بما يقدر عليه من العمل لتغيير الأوضاع وإصلاح الحال فيتحدث عن كل ذلك بتعبير قوي وبيان عذب رائع.

فؤادي يحس وعقلي يعي
وروحي تثور وعلمي معي
وفي عزماتي عناد الجهاد
وصدق اليقين ولا أدعي
ولكن آمال نفسي جسام
تسامى إلى الملأ الأرفع
وساحات سعي صعاب رحاب
ترامى مع الأفق الأوسع
فأني التفت فحق سليب
وأني أصخت فرجع النحيب
وأني سريت فدرب مريب
وفخ عجيب ولغم رهيب
أسير رهين صروف الزمان
وأشعر أني وحيد غريب
أهيب بقومي إلى المكرمات

(ص: ١١٠-من الديوان)

ثم يستطرد الشاعر ذكر أحوال وأخلاق تكدر حيـاة مجتمعه وقومه، كانت الظروف التي قضى فيها شاعرنا أيـام شبابه ظروفاً سيئة محزنة لكل صـاحب شـعور حـي ولكـل محب للقيم الإسلامية، فقد كانت سيطرة الاستعمار شـديدة علـى النفـوس والعقـول، والأوضـاع كلـها صـارت تحـت تصرفاتـه واسـتطاع الاسـتعمار بذلـك تربيـة جيـل، كـان يساعده في تنفيذ أهدافه فالذي يؤمن بقيم أمتـه الإسـلامية وبمكانتها العظيمة وتاريخها الماضي، لا يـهدأ لـه بـال علـى هذه الأوضاع ولا بد لمثله أن يرفـع صوتـه ضدهـا ويبـدي عزمه علـى تغييرهـا ولكنـه يجـد نفسـه مقيـداً مغلـولاً في العوائق والحواجز وهو الذي يشير إليه الشاعر بقوله:

أسير رهين صروف الزمان
وأشعر أني وحـيد غريب

أشكو بثي وحزني إلى الله:

ولا يبقى للمسلم المؤمن في مثل هـذا الحـال إلا أن يرجع إلى ربه وهو القادر على كل شيء فيشـكو إليـه بثـه وحزنه ويسـأله النصـر، لا للظـروف السـيئة يجابهـها بـ لنفسه كذلك التي تعاني من صراع فكـري حينـاً وعـذاب

نفسي حيناً آخر بسبب ما يملك من عاطفة قوية فياضة وآمال بعيدة المنال في الدنيا والآخرة.

لقد ضاق صدري وصدري رحيب

وثار بقلبي أو ام الظمأ
للقيا حبيب وأين الحبيب
تصيخ بقلبي تباريحه
ويفني حياتي العناء الحديب
وفي الروح وثبات الطموح
أوار وفي عزماتي لهيب
أضرت بنفسي ضروب الأسى
فغام شبابي ولاح المشيب
أهيب بقومي إلى المكرمات
وهيهات يسمعني من أهيب
فيارب أنقذني فتى عانيا
تضرع في جوف ليل رهيب
إلهي أغثني فقد غم دربي
وأبعد قصدي وأنت القريب
وأنت الرحيم وأنت العظيم
وأنت السميع وأنت المجيب

(ص: ١٢١-من الديوان)

ميزة الأميري بين معاصريه:

لقد امتاز الشاعر بين أقرانه بعاطفة ثائرة وبإيمان ثابت وامتاز شعره بالواقعية مع التجديد، والإبداع، واقعية تحيط بجوانب الحياة المختلفة من تفكير في الأوضاع ومن معاناة نفسية للظروف القاسية ومن إدراك للواقع، ثم عرض كل ذلك بأسلوب بديع فإنما يدرك الدارس لديوانه الوضع السائد الذي كان يعيش فيه الشاعر وشعوره الثائر ورغبته للعمل وشعوره بالضعف أمام الصعاب ثم لجوءه إلى ربه ببثه وشكواه.

لقد كان الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري شاعراً من الطراز الممتاز وقد ابتكر أسلوباً رائعاً، لتصوير نفسه والظروف التي عاش فيها، وهو في نفس الوقت يحفز الهمم وينادي إلى العمل، ولقد أوجد بذلك طريقاً يجمع بين الدين والأدب جمعاً طريفاً بديعاً، فأصبح شعره حيناً نداء جهاد، وحيناً شكوى وبث أحزان، وحيناً مناجاة ودعاء وابتهالات إلى الله.

وكل ذلك بتعبير غنائي وأسلوب وجداني ممتع.

ساعة مع الشاعر الإسلامي عمر بهاء الأميري

صاحب المناجاة والتأملات الروحانية:

توفي في الأسبوع الأخير من شهر شوال الماضي ١الشاعر الكبير الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري عن عمر يناهز تسعين سنة، فكانت وفاته خسارة كبيرة للأدب والعلم والمنهج الإسلامي الخاص في الشعر، كان شاعرنا العظيم قد ابتكره وخط بذلك في الشعر خطا جديدا.

لقد كانت مناجاته وتأملاته الروحانية التي كان يبث فيها خواطر ابتهال وشعور روحاني رقيق من أروع ما كان يجد فيها القارئ والسامع في شعره من تأملات ومشاعر رقيقة، وكان ذلك أسلوبا لا تنقصه روعة أداء وبراعة تعبير، كان شاعرا إسلاميا فحلا يستمد الأدباء الإسلاميون من شعره قوة وتوجيها ولقد جمع شعره في دواوين عديدة،

---

١ تاريخ الوفاة.....

وكلها يدل على براعته وجدته في المجال الشعري، وإسلامية شاعرنا في شعره رغم طبيعة الموضوع الجادة لم تنل من حيوية شعره النقية وروعته التعبيرية.

ميزة بين أقرانه:

نهض شاعرنا العظيم في أوساط العلم والسياسية، وعمل فيها مدة من الزمن، وزاول قول الشعر، فامتزجت فيه شخصيتان شخصية علمية وشخصية فنية، فأنشأ ذلك الامتزاج فيه شخصية أدبية خاصة امتاز بها، وتميزت مكانته بين أقرانه فيها، وكان يتصف بدعابة أدبية كذلك كان يطرف بها سامعيه والمنصتين به مع رزانة ووقار كان يتصف بهما بسب مكانته العلمية في المجتمع.

رقة شعور الشاعر:

ولقد رق شعوره رقة أشد منذ أن رأى عدم ملائمة أحوال وطنه السياسية معه، ولجأ بسبب ذلك إلى الإقامة في بلاد شقيقة ولكنه كان يحن حينا لآخر إلى مرابع طفولته وربوع وطنه التي نشأ فيها وشب ومارس أعماله بين أترابه وأقاربه.

أواصر المحبة والصداقة:

اختارته حكومات بلاده الشامية في شبابه ممثلا وسفيرا في باكستان وفي السعودية فقام بأداء مسئوليته فيها خير قيام، ونشأت له خلال ذلك روابط علم وأدب مع

علماء البلاد التي كان يمثل بلاده فيها، وتعرف خلال ذلك على أوساط الأدب والعلم فيها حتى أنه عرف لغة باكستان والهند وهي لغة أردو فكان يفهمها جيدا بل ينطق بها عند ما يرغب في النطق بها.

خلال تلك المدة نشأت بينه وبين رجل الندوة أيضا أواصر محبة وصداقة مثل العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله- وفضيلة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وقد زار ندوة العلماء وحضر الحفل الذي كان عقد فيها لتأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، فكان عضوا مؤسسا موقرا فيها، وحافظ على نسبته وصلته برابطة الأدب الإسلامي حتى نسب ديوانه الأخير "رياحين الجنة" إلى الرابطة، وجعلها من مطبوعاتها.

صاحب رياحين الجنة:

وهذا الديوان من أظرف دواوين شعره حيث خاطب في قصائده فيه أولاده وأحفاده، وسجل تأملات حب ومشاعر شفقة ورحمة بهم فيها، فيظهر منها كيف يكون الوالد الشفيق على نفسية فيها الرحمة وفيها الحنان، وكيف يكون الكبير الرحيم مع صغيره الضعيف في حالة إنسانية طبيعية، وقد طلب من فضيلة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي كتابة تقديم لهذا الديوان، فكتب سماحته وأبدى تقديرا لائقا بالديوان وبمكانة صاحبه الشعرية.

قضى شاعرنا العظيم آخر سنواته في المغرب

كأستاذ صاحب الكرسي، في كلية دار الحديث الحسنية في الرباط إلى أن صار يعاني من أمراض الشيخوخة وأصيب بنوبات قلبية في آخر عمره، وكان يحتمل ذلك بصبر مع المحافظة على حيويته وبشره ولم يفت ذلك في عضده إلى أن وافاه الأجل المحتوم فغادر محبيه وذويه محزونين وشاعرين للخسارة التي منوا بها بوفاته.

رحم الله الفقيد الجليل، وأسكنه فسيح جناته وأثابه بقربات عنده، وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وندعو الله تعالى لأنجاله الكرماء بأن يلهمهم الصبر والسلوان ويجعلهم أخلاف صدق لأبيهم العظيم، ومنهم أكبرهم الأخ الدكتور براء عمر بهاء الدين .

جود العرب في ضوء الشعر العربي

تدل دراسة تاريخ العرب الأدبي والثقافي واستعراض الشعر العربي القديم على أن الجود والسخاء من أعظم عناصر الشخصية العربية وخصائصها الخلقية، وقد كان العرب يتسابقون فيما بينهم لإظهار هذه الخلة الكريمة، ويذكرون في أدبهم وشعرهم أحداثها وأعمالها بكل اعتزاز وغبطة، وكانوا يملكون براعة أدبية فائقة لإبداء ما في نفوسهم من مشاعر وانطباعات ويختارون للحديث عنها أساليب رائعة مؤثرة، يتصف كلامهم بصورة عامة بحسن السبك وقوة التعبير وبراعة الأداء، حتى أن البسطاء منهم أيضاً كانوا يهتمون بالإجادة اهتماماً كبيراً، لذلك كانوا إذا أرادوا أن يذيع صيتهم وتشتهر أخلاقهم وتعرف في الناس عاداتهم التي تستحق أن تحمد ذكروا أحداث حياتهم الطيبة وخصال أخلاقهم الكريمة في كلامهم الشعري بأسلوب جميل بارع.

ولما كان الجود والسخاء أكرم خصالهم وأرضاهم لديهم أكثروا ذكرها وعظم حديثهم عنها، ورويت عنهم في ذلك حكايات طريفة وزخر بها كلامهم، وتضمنت كتب

ولما كان الجود والسخاء أكرم خصالهم وأرضاهم لديهم أكثروا ذكرها وعظم حديثهم عنها، ورويت عنهم في ذلك حكايات طريفة وزخر بها كلامهم، وتضمنت كتب التاريخ والسيرة ذكر عدد من الشخصيات النابغة في هذا المجال ممن اشتهروا بخصال الكرم والجود، فقد نبغ منهم رجال تنسب إليهم في ذلك أمثلة غريبة وأحداث نادرة من خصال الجود والسماحة والعطاء في العصرين الإسلامي والجاهلي على السواء، أما في العصر الجاهلي فكان أشهرهم حاتم الطائي الذي طبق صيته الخافقين، ويليه في الشهرة هرم بن سنان وكعب بن مامة الأيادي.

أما جود هرم بن سنان فقد خلد ذكره شاعر العصر الجاهلي الكبير زهير بن أبي سلمى في شعره، ويلاحظ ذلك في معلقته وفي قصائده الأخرى، أما كعب بن مامة الأيادي فمما روى في جوده أنه مات بشدة العطش، مع أن الماء كان عنده، ولكنه لم يشرب إشفاقا من أن يموت صديقه متعطشا فسجل التاريخ إيثاره هذا لأبد الدهر.

وأما حاتم الطائي فصارت أخباره مضرب الأمثال، وإن كان بعضها لا يستند إلى الصحة عند البحث والتحقيق، ولكن معظمها ثبتت بشتى البراهين والدلائل التي تدل على ثبوتها، وشعره يؤكد على ذلك، ومنه أن حاتم الطائي رد على زوجته ماوية اعتراضها على جوده المتجاوز لحد الاحتمال، وقال:

أمـــاوي إن المـــال غـــاد ورائـح
ويبقى من المـــال الأحاديث والذكر
أماوي ما يغني الثـــراء عن الفتـى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
أمـــاوي إن الـــمـال إمـــا بذلتـه
فـــأوله شكـــر وآخـــره ذكـــر

وكان يأمر غلامه يترقب الأضيـاف، ويجلبـهم وكـان يقول إنه إن فعل ذلك يجزي بعتقه من الرق.

يقول:

أوقـــد فـإن الليل ليل قـــر
والريح يا غـلام ريح صـــر
لعـــل أن يبصرهـــا المعتر
إن جلبت ضيفـــاً فأنت حر

ولم يتضاءل شأن الجود عندهم لما جـاء الإسـلام بـل اتسع وازدهر، وكانت طريقة الجـود عنـد العـرب هـي أن يقوموا بالقرى لكل من يحل عليهم ضيفاً من المسافرين أو الغربـاء أمـا إذا كـانوا مـن البؤسـاء وذوي الحاجـة فـإن ضيافتهم أهم وألزم، وكان العرب إذا نـزل عليـهم ضيـف يرحبون به ترحيباً حاراً، وكانت تتـهلل أسـارير وجوهـهم سروراً واغتباطاً.

وكانوا يقومون له ببذل كل ما لديـهم مـن أسـباب الإكرام والضيافة ويستعملون له كرائم الأمتعة، بل كـانوا

يجعلون له الخيار في اقتناء ما شاؤا منها، رغم أنهم كانوا لا يستغنون عنها بسبب زهادة ما عندهم من مال وقلة ما لديهم من متاع يقومون بالتضحية في ذلك، وكانوا في منتهى الغيرة والشعور بالعزة وحب العظمة وفي شدة الاعتناء بصيانة الأعراض والحرمات حتى إنهم كانوا يفضلون الموت في سبيلهما فضلاً عن أن يصبروا على الإهانة والذلة أو على إساءة إلى شرفهم، ولكنهم لم يكونوا يعدون التواضع للضيوف وخدمتهم عاراً أو مهانة مهما كان ذلك في ظاهره شكلاً من الإهانة، حتى قال شاعرهم:

وإني لعبد الضيف مادام نازلا
ومالي شيمة غيرها تشبه العبدا

ويقول شاعر آخر:

لعمر أبيك الخير إني لخادم
لضيفي وإني إن ركبت لفارس

وقد يبلغ جودهم وسخاؤهم إلى حد ما يوصف فيه بالسفاهة والتبذير المفرط ولكنهم كانوا يستحسنون ذلك، ويعدونه وسيلة لحسن الصيت وسبقهم بالفضائل على الآخرين، روى أبو الفرج الأصبهاني في كتابه (الأغاني) قصة رجل ملأ حفرة واسعة بعجين، وبسط على سطحه أعشابا.

وأجرى إليه الفرس حتى وقع في العجين، واشتهر في الناس أن فلانا بلغ عجينه الذي كان أعده لقرى

الأضياف إلى حد أن الفرس وقع فيه، وعد صاحب العجين هذا الصيت مفخرة له، واستخدموا في الأدب والشعر العربي لإبداء الجود والاعتزاز به استعارات مختلفة وكنايات رائعة تعجب القارئ وتمتعه بطرافتها وتتضمن هذه الاستعارات والكنايات إشارات ومعلومات ثقافية عن حياتهم، ومنها قولهم إن فلانا كثير الرماد يعنى أنه يطبخ في بيته طعاما كثيرا يقرى به الضيوف، لأن الرماد يكثر بكثرة الوقود، وهو دليل على كثرة الطبخ وذلك يشير إلى مطلوبه من شهرة السخاء، ومن كنايتهم في ذلك أنهم يذكرون عن كلب المنزل أنه لا ينبح عند مقدم الضيف لأن الضيف الأجنبي لا يبقي في نظر الكلب غريبا لكثرة ما يأتي إليه الضيوف فيترك الكلب هريره، وإن كان الضيف يأتي في ظلام الليل.

يقول الشاعر وهو سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه :

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

كما أن الشاعر يكني عن شدة اهتمام لقرى الضيوف بقوله إنه يلهب النيران إلهابا فيراها الضيف من بعيد فيعرف أين موضع إكرامه وضيافته، ويذكر الشاعر عن كلبه أنه أصبح جبانا لتركه النباح على الطارق، ويذكر

عن رضيع ناقته أنه أصبح هزيلا لكثرة ما يقدم لبن أمه إلى الضيوف.

ومـــأيـك في مـــن عيب فـــإنـــي
جبان الكلاب مهزول الفصيـــــل
وإني سفيه النـــار للمبتغى الفـــر
وإني حليم الكلب للضيف، يطرق

والواقع أن الشاعر يستهدف بهذه التعبيرات بيان عادات الجود والسخاء الشائعة في المجتمع بحيث أن الخيام التي تضرب في الصحراء الفسيحة التي لا يحصل فيها ماء ولا ميرة لخلوها من آبار وعيون إلا ما يستبقيه أصحابها لحاجتهم الشديدة، و يأتي المسافرون والغرباء إلى هذه المنازل رجاء أن يسدوا حاجتهم من كرم أصحاب، فإن لم يقم أصحابها بضيافة المسافرين، فلا نجاة لهم في مناطق الصحراء وعند ما ينتشر الظلام فلا يمكن للمسافرين النظر إلى هذه المنازل والخيام فتكون النار التي يشعلها أصحاب الخيام دليلا للراغبين من المسافرين.

يتوجه به إليهم البؤساء والمعترون ويقضون حاجتهم من الضيافة، ولذلك يذكر الشاعر العربي عند ذكر جوده وسخاءه إشعال النار الساطعة الرفيعة اللهيب، ولا يقتصر العربي السخي الجواد على إشعال النار فحسب بل يوقد الأعواد ذات الرائحة الكريمة في بعض الأحيان، لأن طالب القرى إذا كان ضريرا لا يبصر النار فإنما تهديه إليها رائحة

الطيب فيدرك أن النار ملتهبة قريبا، فينطلق إليها طلبا للضيافة (بلوغ الأرب للآلوسي).

وكان العرب يريدون من إشعال النار أن يراها المسافرون فيهتدوا إليها، وينالوا من أصحابها ما يقوى صلبهم في السفر الشاق، بل إنهم كانوا يهيئون بذلك ما يجعل القادمين عليها يستدفؤن بها في برد الشتاء، ويتمتعون باصطلاءها، والشعر العربي حافل بقصص الاصطاء بالنار، يمدح الشاعر الكبير أعشى جود ممدوحه "الملحق" ويقول:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
على ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبان ثدي أم تقاسما
بأسحم داج عوض لا نتفرق

ويقول شاعر آخر:

فيا موقدي نار ارفعاها لعلها
تضيئ لسار آخر الليل مقتر

وتبدأ أيام الشتاء في بلاد العرب بعد انتهاء أيام الحر التي تمتد إلى ثمانية أو تسعة أشهر، وأيام الشتاء تأتي عند ما تجدب فيها الأرض وتزول خضرتها.

وشدة البرد وقلة الغذاء تضاعفان حاجة الناس إلى الضرورات الغذائية وإلى حاجات الدثار، وحالة الفقر يزيد

صعوبة السخاء والجود، وفي هذه الظروف القاسية لا يتمكن السخي من السخاء إلا بهمة عالية للتضحية والإيثار، ولذلك يفتخر العرب فيما يفتخرون بهمتهم للسخاء في أيام الشتاء وهي حالة البرد الشديد، فيقولون إننا نقوم بالجود والسماحة في أيام الشتاء الشديدة، تشير إلى ذلك أبيات قالها شاعر العصر الأموي الكبير الفرزدق، يصور فيها حالة الشتاء، ويذكر فيها مآثر السخاء والكرم في ظروف صعوبة وشدة.

إذا أغبر آفاق السماء وكشفت
بيوتا وراء الحي نكباء حرجف
وأصبح مبيض الصقيع كأنه
على سروات النيب قطن مندف
ترى جارنا فينا بخير فإن جنى
فلا هو مما ينطف الجار ينطف

لقد كان العرب يشعرون شعورا شديدا بجفاف زمن الشتاء وشظف العيش فيه، والفقر الذي يعم فيه حتى كان اسم الشتاء مرادفا للحاجة والفقر.

يقول الشاعر يمدح مضيفه:

نزلت على آل المهلب شاتيا
غريبا عن الأوطان في زمن محل
فما زال بي إكرامهم واقتفائهم

وألطافهم حتى حسبتهم أهلي

وقال شاعر آخر في مدح بعض الفتيان على سخائهم في أيام الشدة وزمان الفقر والجوع، ويعبر عن ذلك بالشتاء.

والمطعمون إذا هبت شامية
وباكر الحي من صرادها صرم
وشتوة فللوا أنياب لزبتها
عنهم إذا كلحت أنيابها الأزم

هذه الأمثلة للكنايات والتعبيرات التي سقناها، أكثرها مستقاة من الشعر العربي القديم ويمثله ديوان الحماسة لأبي تمام، ونقدم هنا قصيدة منه تجمع عديدا من التعبيرات القوية المؤثرة المتصلة بهذا الموضوع بأسلوب جميل رائع، يذكر الشاعر فيها ارتياد مسافر غريب يطلب قرى من مضيف في أيام شتاء باردة وفي حالة قلق واضطراب، والقصيدة للشاعر "الضابئ البرجمي" يذكر فيها إني أضرمت النار إضراما شديدا، ليراها النزيل المعتر، وقدم إلينا ضيف، فرحبنا به ترحيبا حارا، واستبشرنا بقدومه، وقلت للضيف !أضنيتني بالانتظار ثم ذبحت له ناقة سمينة دسمة، ووضعت القدر على الموقد، يذكر جميع هذه الحوادث بفرح وانبساط وحبور وبأسلوب رائع مؤثر.

ومستمنح تهوي مساقط رأسه

إلى كل شخص فهو للسمع أصور
يصفقه أنف من الريح بـــــارد
ونكباء ليل من جمادي وصرصـــر
حبيب إلى كلب الكريم مناخـــه
بغيض إلى الكوماء والكلب أبصر
حضأت له ناري فأبصرها ضوءها
وما كاد لو لا حضأة النار يبصـر
دعته لغير اسم هلم إلى القــرى
فأسرى يبوع الأرض والنار تزهر
فلما أضاءت شخصه قلت مرحبا
هلم وللصالين بالنار أبشـــروا
فجاء محمود القرى يستفزه إليهـا
وداعي الليـــل بالصبح يصفـر
تأخرت حتى لم تكد تصطفى القرى
على أهـــله والـحـق لا يتأخـــر
وقمت بنصل السيف والبرك هاجد
بها زره والموت في السيف ينطـــر
فاعضضته الطولى سناما وخيرهـــا
بـلاء وخـيـر الخـير ما يتخيـــر
فارفضن عنها وهي ترغو حشاشـة
بذى نفسها والسيف عريان أحمـــر
فبانت رحاب جونة من لحامهــــا

وفوحا بما في جوفها يتغرغر

لقد كان العرب يلقون من أهلهم لومة على جودهم المفرط فكانوا يدافعون عنه دفاعا قويا بشعرهم المؤثر، هذا حاتم الطائي يخاطب زوجته ويقول لها، اسمعي يا لائمتي إن السخاء والجود لا يهلك الإنسان كما أن اللؤم والشح لا يخلده ولا يبقى ذكره.

أعاذل أن الجود ليس بمهلك
ولا يخلد النفس الشحيحة لؤمها

ويقول حسان بن ثابت رضي الله عنه، لو خيرت بين الكرامة والمال لآثرت الكرامة على المال، لأن المال إن هلك فيعوض، ولكن الكرامة إذا ضاعت فلن تعوض:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه
لا بارك الله بعد العرض في المال
احتال للمال أن أودي فأجمعه
ولست للعرض إن أودي بمحتال

وقل شاعر آخر:

إن الثروة تمنح صاحبها إذا أنفقها في الضيافة والجود كرامة وشرفا.

وليس الغني إلى غني زين الفتى
عيشة يقرى أو غداة ينيل

حتى إن الشاعر المعتز بسخاءه وجوده كان يواجه أحيانا جدالا من زوجته فيهددها بالفراق إذا أصرت على

منعها من السخاء، ويذكر شاعر منعته زوجته من جوده وسخاءه بالمضض والامتعاض ويهددها بالفراق:

لقد أمرت بالبخل أم محمد
فقلت لها حتى على البخل أحمدا
فإني إمرؤ عودت نفسي عادة
وكل امرئ جار على ما تعودا
رجوت شقائي واعتلالي بنوتي
ورائك عني طالق وارحلي غدا

ويفتخر عروة بن الورد بسخاءه ويهجو البخيل حيث يقول:

إني إمرؤ عافي إنائي شركة
وأنت إمرؤ عافي إنائك واحد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء البارد

إن الحكايات في جود العرب وحفاوتهم توجد في أدبهم وشعرهم بأساليب متنوعة اقتطفنا أمثلتها منها في هذه العجالة، وهي غيض من فيض، لون قصدنا الإحاطة بها، وأفضنا الكلام فيها لضاقت بها صفحات السجلات.

الفهرس

تقديم الكتاب ٣
نعمة البيان التي من الله تعالى بها على الإنسان..... ٤
نظرة إسلامية إلى الأدب..... ١١
السمة الإسلامية و الأدب..... ١٦
مسيرة الأدب الإسلامى..... ١٩
هذا أدب إسلامى و ذاك أدب جاهلى ٢٨
أثر الدعوة الإسلامية على الأدب..... ٣٥
المناجاة و الابتهالات : قيمتها الأدبية و مزاياها الفنية. ٤٠
صنف من الشعر : عذب و حبيب..... ٤٣
سمات النبوة و طبائع البشر فى الكلام النبوى..... ٤٧
نظرة على الخطابة المعجزة..... ٥١
موافقة الكلام الأدبى للوضع النفسى..... ٥٦
الالتزام و نحن و الغرب..... ٦١
الأدب تهذيب و إيناس ، لا تخميش و إهانة..... ٦٥
ليس الأدب محصورا فى الهوى و الشباب..... ٦٨

أنماط جديدة للأدب.....٧٢
بين التعقيد و الوضوح.....٧٦
الكلمات بين معانيها و مفاهيمها.....٨١
دراسة مذاهب الأدب الغربية بعيداً
عن مَركب النفس ٨٧
العلامة السيد سليمان الندوى و اهتمامه بالعربية.....٩٢
االشاعر الإسلامي عمر بهاء الدين الأميري
فى ديوانه مع الله.....١١١
ساعة مع الشاعر الإسلامى عمر بهاء الأميرى.....١١٩
جود العرب فى ضوء الشعر العربى.....١٢٣
الفهرس.....١٣٥